الجزء الرابع

أسلوب حياة

obeikandl.com

obeikandl.com

الرسالة السادسة عشرة

صينيّة بقلاوة من غازي عنتاب

إلى السيدة المبجلة جول أكا

عزيزتي السيدة ماري،

في رسائلك تصفين زياراتك لبعض النساء في حريم الدار، ولا تكتفين بتقديم التفاصيل الغنيّة عن الحياة اليوميّة وفهم شخصيّة النساء فحسب، بل تلقين لنا الضوء على ما اشتهر به الأتراك من حسن الضيافة في العالم.

اطمئني يا سيدة ماري؛ فلا شيء تغير منذ أن استقبلوك بالتَّرحاب في منازلهم، صحيح أن تركيا لم تعد إمبراطوريّة يحكمها السلاطين، وقد بسقت على أرضها ناطحات السحاب هنا وهناك وسط السحب المترائية من نافذة قصرك بمنطقة بيرا، لكن حسن الضيافة التركيّة لم يتغير أو يتبدّل.

يحظى الكرم التركيّ بشهرة عالميّة، ويستحق هذه الشهرة عن جدارة؛ ظلِلتُ مدة طويلة أحاول أن أفهم سبب تحلّي هذا البلد بالكرم وحسن الضيافة أكثر من أيّ بلد آخر في العالم، وتوصلت إلى عدة أسباب:

obeikandl.com

- قد يكون أولها راجعًا إلى الأصول البدويّة للأتراك؛ إذ منحتهم شعورًا عميقًا بالتعاطف مع المسافرين؛ فقد أنشأ السلاطين السلاجقة فنادق وأنزالًا للمسافرين توفّر المأوى والمطعم المجّانيّ ثلاثة أيام على نفقة الدولة للتجار المسافرين؛ وسار العثمانيون على نهج السلاجقة؛ فأقاموا أعدادًا كبيرة من المطاعم توزع الطعام على المحتاجين والمسافرين؛ فلن تجد مسافرًا لا يلقى الرعاية أو الحماية من الخطر.

- والسبب الثاني لكرم الأتراك نابع من ثقافتهم الإسلاميّة؛ فحسن الضيافة سمة شائعة بين المسلمين في أنحاء العالم كافّة؛ وبوجه عام ينبغي على كل مسلم أن يكون في عون الآخرين دليلًا على طاعته لله، وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم الأساسيّة في الحياة، ويعبّر الأتراك عن طاعتهم لله في صورة حسن الضيافة والكرم الجاري منهم مجرى الدم من العروق؛ فيشكل هذا المفهوم الواضح أساسًا لأسلوب الحياة الاجتماعيّة التركيّة المشتركة؛ فيعكس احتياجهم الدائم لإرشادهم للآخر وقيادته وحمايته؛ يقول النبيّ -صل الله عليه وسلم-: "كلوا جميعًا ولا تفرَّقوا؛ فإن طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الثلاثة والأربعة، كلوا جميعًا ولا تفرقوا؛ فإن البركة في الجماعة"[1]؛ ولعل أوضح عبارة تبيّن فلسفة الأتراك تجاه الضيف المفاجئ وصفه بأنه زائر من عند الله؛ لهذا يتعامل الأتراك مع المسافرين بسخاء وكرم لا ينتظرون مقابلًا، بل إن العائلات تقيّم نفسها بمدى كرمها تُجاه ضيوفها؛ وقد تحدث الرحّالة الشهير ابن بطوطة عام ١٣٣٠م عن تَرحاب طائفة سلجوقية دينيّة به هناك قائلًا: "لا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالًا بالغرباء من الناس، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج".

(١) مسند البزار رقم ١٢٧، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٨٦٣٠.

ربما يوضح هذا السبب الأخير رؤية الأتراك الخاصّة للقاعدة الإسلاميّة الأساسيّة: فَمَنْ يَعْمَلْ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة:٩٩/٧-٨) ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (سورة الأعلى:٨٧/١٧)، عمومًا أيًّا كان السبب، فإن كرم الأتراك يتسم بالدفء والبشاشة والهدايا والمشاعر الطيّبة الرقيقة وبالأصالة والسريّة والصدق؛ حينما قرأت رسائلك يا سيدة ماري، أدركت أنك استشعرت الرقّة نفسها، ولعلها السبب وراء السماحة في تعليقاتك؛ فلم تشعري بالغربة هناك، بل شعرت بالراحة، وتقبلت الاختلافات الثقافيّة وسمحت لها أن تغمرك كالماء الفيّاض؛ عندما أكون في تركيا أُعامل بلطف ولو مرة يوميًّا، ما بين إيماءة خفيّة إلى عمل عظيم يذهلك ما فيه من مشاعر.

إن كلمة الأناضول باليونانيّة تعني «مشرِق الشمس»، ويبدو أن كلّ تركيّ يستمد جزءًا من ضياء هذه الشمس، ثمّ يشعّ منه نور للعالم مرة أخرى؛ يلقَى كلّ زوّار تركيا الحفاوة نفسها، إلا أنني كنت محظوظة جدًّا -مثلك يا سيدة ماري- لأحظى بكرم أكثر من جُلّ السائحين.

لا يتحلى الأتراك بحسن الضيافة والكرم مع الأغراب والأجانب فقط، بل أصبحت هذه السمة أسلوبًا سائدًا في الحياة؛ فأثناء الحديث، كثيرًا ما يردّدون كلمة (بويورون)، وهي كلمة جامعة رائعة في سهولتها، تحمل عدة معانٍ، مثل: «من فضلك! تفضل! على راحتك! من هنا لطفًا! على الرحب والسعة!» إنها لفظة مناسبة لكلّ موقف، ناهيك عن صدورها بأسلوب أخّاذ؛ فدائمًا ما تصاحبها ابتسامة ويد ممتدة؛ فهي في نفسها هديّة!

حدثتكِ بالفعل عن حسن ضيافة الأسرة التي تبنَّتْني وعن سخائها، غير أن أهون الأمور يوميًّا في الطرقات تنمّ عن الكرم التركيّ، كأن تتلقي قدحًا من القهوة على صينيّة ذهبيّة، أو أن ينفتح الباب أمامك تلقائيًّا -أكثر

الأمور شيوعًا في تركيا تقديم أكواب الشاي-، علاوة على ذلك لا يسمح الأتراك لي أن أدفع ثمن أيّ شيء أو أن أتكفل بنفقاتي، بل يعدونها إساءة بالغة أن أحاول دفع النقود، وإياكِ أن تَعْرِضي دفع نفقاتك وبصحبتك رجل؛ فهذه إهانة بالغة لشرف رجلٍ تركيّ مضيّف سخيّ.

غالبًا ما ينصبّ حسن الضيافة التركيّ على تقديم الطعام والشاي، ولا بد أن تقبلي كلّ ما يُعرض عليك، فالأتراك لن يتوقفوا عن المحاولة حتى تستسلمي؛ فبينما نسأل شخصًا في بلادنا إن كان يريد شيئًا مكتفين بإجابة الضيف نعم أو لا من أول مرة، فالحال مختلف هنا؛ إذ السؤال يُطرح على الأقلّ ثلاث مرات؛ لأن الأتراك مقتنعون أننا نخجل أو نستحي من الموافقة من أول مرة.

في رسائلك يا سيدة ماري، وصفتِ «الخمسين طبقًا» المقدمة لك، ويمكنني أن أؤكد كلامك؛ فدائمًا ما تُعدّ مائدة عامرة للضيوف؛ تضم ثمار الإجاص الصابحة والكباب يدويّ الصنع وفطائر اللحم والكبّة؛ ذات مرة وصلتني على العشاء صينيّة قطرها قدمان ملأى ببقلاوة الفستق الشهيرة، أُرسلت خِصّيصَى لخدمة التوصيل مسافة نحو مئة وخمسين ميلًا في حافلة من غازي عنتاب إلى قيصري.

ليس ثمة وسيلة في التعبير عن الكرم ألطف من تقديم أكواب صغيرة مزيّنة بأزهار توليب بها شاي ياقوتيّ ساخن؛ فمع كل رشفة يمكنك أن تستشعر دفء هذا الشعب وعذوبته؛ إنها لفتة صغيرة تترك أثرًا كبيرًا؛ إذ تضفي على كل شيء لمسة إنسانيّة، بدءًا من تسجيل الوصول إلى الفندق حتى الاستمتاع بخضرة متنزّه عامّ.

أينما تذهب تفزْ بكوب الشاي: في المتاجر عقب الشراء، في الزيارات السريعة إلى منزل صديق -ويفرض العرف تناول ثلاثة أكواب-، في الصيدليّة عندما تذهب لشراء أقراص الأسبرين لتخفيف الصداع،

عند المصوِّر، وبالطبع عدة مرات أثناء المساومات لشراء سجّادة! فأصبح تناول الشاي من طقوس إبرام الأعمال، وعندما تصطك الملعقة بجانبي الكوب الزجاجي تصدر جرْسًا عذبًا، تستجدّ معها عرى صداقة وثيقة.

تتجلى أبرز المظاهر لحسن الضيافة في معاملة الضيف في منزل تركيّ؛ فهي تجربة أشبه بسباق يركض فيه كلّ أفراد الأسرة والجيران المضيِّفون؛ إذ يسارعون لمنحه أفضل فراش في المنزل، ويعملون على تغيير نظامهم اليوميّ كلّه ليتوافق معه، وكأنهم لا همّ لهم في الحياة سوى الاهتمام به؛ يتوقون دائمًا للتعرف إليه حتى يعرفوا طريقة ربط حذائه وتمليح طعامه، ولا بد أن يكون الضيف مستعدًا لتقبل التدقيق الشديد في كلّ ما يفعله.

ذات مرة نزلت ضيفةً في إزمير على منزل لوالدَي صديقتي الأمريكية، ولا بدّ أن أُقِرّ أنهما اعتنيا بكلّ شيء، وظلّت المضيفة تقطع المنزل جيئة وذهابًا لضمان راحتي؛ فذات ليلة، أثناء تناول العشاء في الشرفة، اتكأت على السياج، وحينما حاولت الابتعاد عنه، أدركت أنني ملتصقة به بطريقة ما، حاولت إخفاء ورطتي قدر استطاعتي، وأخيرًا انتهزت فرصة تغيير الأطباق على المائدة وتمكنت أن أنتزع نفسي بعيدًا عن السياج، فوجدت أن ذاك الجانب من فستاني قد تلطّخ بطلاء أبيض، وفي وقت متأخّر من الليلة نفسها حاولت فتح النافذة في غرفة نومي قبل أن أخلد إلى الفراش لكن دون جدوى؛ إذ كانت عالقة بشدة، حاولت عدة مرّات قبل أن ألاحظ أن يديّ ملطختان بالطلاء نفسه، وما أدركت الأمر إلا حينئذ؛ فهذا الطلاء الطريّ دليل على استعداد الأسرة لزيارتي، بدءًا من لحظة اتصالي قبل يومين لأعلمهم بقدومي حتى صباح اليوم.

أثناء زيارتي لأسـرة في قيصري، تم ترتيـبُ حفلٍ للتعارف بعد تناول العشاء، ودُعيت ثلّة من الجيران للسَّمر، واحتساء الشاي، وتناول الفاكهة، والجوز، والاستمتاع بنسيم الليل، حضر كل هؤلاء للترحيب بي، فشعرت بشـعور السـلطان الذي يسـتقبل السـفراء -أمثال زوجك يا سيدة ماري-؛ وعندمـا أوشـك الحفل أن ينتهـي، أعلن أحد الضيـوف -ويُدعى مُظفّرًا- رغبته في إلقاء كلمة؛ فسـكتنا جميعًا؛ بدأ يتحدث ببطء شـديد وبكلمات سهلة لأفهم كلامه: «سيدة قدريّة! نشكر لك زيارتك، نحن سعداء بالتعرف إليـك، وننتظـرك مرة أخرى العام القـادم، ونتمنى أن يحضر معك زوجك حينئـذ، نتمنى أن تكون رحلتك موفقـة وآمنة، بارك الله فيك»، ولما انتهى نهضنـا جميعًـا، وتبادلنـا التَّحايا، ثم غادروا؛ لن تجدي أيّ سـفير مبعوث إلى بلاط السلطان أحمد أكثر كياسة أو لطفًا.

يعاملـك الأتـراك في كل مكان كما لو كنـتِ ضيفتهم؛ ذات مرة كنت فـي مطعم فـي أفيون، ووصلت مجموعة عشـرون شـخصًا تقريبًا ليقيموا احتفـالًا عائليًّـا، وعندمـا رأونـي دَعَوني؛ ويلقـى المرء معاملـة الضيوف الكريمـة نفسـها فـي المكاتـب أو في أماكـن العمل؛ فمـكان العمل ليس إلا امتـدادًا للمنـزل، وعندمـا تدخله تسـري عليـك قواعد الحيـاة الرائعة نفسـها؛ أخبرتكِ سـابقًا كيف تحولت زيارتي إلى أحد الأسواق إلى زيارة لمكتب العمدة بقرية إزينابازار؛ حينما وصلت إلى ذلك المبنى الحكوميّ الخرسـانيّ المطـلّ على الميدان، صعد معي مسـاعد العمدة إلى المكتب فـي الطابـق الثاني، فمررنا على لوحات ملونة بارزة للسـلاطين العثمانيّين والسـلجوقيّين المشـهورين جميعًـا، ثـمّ توقفنـا لحظة أمـام خزانة عرض زجاجيّة تضم نصبًا تَذْكاريًّا يدعى «ركن الشهداء»، به صور باللونين الأسود والأبيض لجنود محليّين استشـهدوا في الاشـتباكات الأخيرة مـع إرهابيّي حـزب العمال الكردسـتانيّ، وتمثال نصفيّ ذهبيّ كبيـر لأتاتورك، وزهريّة

كبيرة تحتوي على أزهار حمراء بلاستيكيّة، وهي لفتة بسيطة تثير المشاعر، ذكَّرتني بالنصب التَّذكاريّ لمحاربي فيتنام في واشنطن العاصمة.

لدى وصولي إلى مكتب العمدة لم أجده مثل مكاتب رجال الأعمال في الغرب؛ إذ كان يضم طاولة عظيمة أكبر من طاولة أيّ وزير فرنسيّ، عليها قلم حبر ونشَّافة، وهاتف، ولافتة ذهبيّة كبيرة كُتب عليها اسم المحافظ ومنصبه، ومجموعة الصحف اليوميّة، وثلاثة أعلام تركيّة مثبتة على حامل صغير، ليس هذا فحسب، بل ضم المكتب أريكتين وستة مقاعد بمسندين، ومطافئ بلوريّة للفائف، وشاشة تلفاز ملون مسطّحة هائلة، ورفوف للكتب، وحاسوب، ومائدة حولها ثمانية مقاعد، وصورة ثلاثية الأبعاد لأتاتورك، علاوة على صور مأطورة لمشاهد جبليّة معلقة كلّها على الحائط، وزهريّات، وثلاثة أقفاص بها طيور الكناري الصفراء المغرِّدة، وأؤكد لكِ أنني استُقبلت بحفاوة وأبّهة أكبر مما تلقيتهما أثناء زياراتك لحريم الدار يا سيدة ماري.

حاورني العمدة حوارًا مفعمًا بالحيويّة ثلاث ساعات، وراح يعرض عليّ أوراقًا على مكتبه أو على رفوف كتبه، وأغراضًا في أدراجه وملفاته، ونادى مساعده وأعطاه كومة من هذه الوثائق -وهي تقارير عن المحاصيل، وإحصاءات محليّة، ومقالات عن السوق- وأمره أن ينسخها لي، ثم شغّل العمدة المكيّف بالحاكوم على مكتبه، وسرعان ما قُدّم لي الشاي والصودا والماء والمياه الغازيّة دَفعة واحدة بينما قُدّمت للعمدة قهوة تركيّة، ثم شاهدنا عرض فيديو لاحتفالات الختان المحليّة العامّة التي أقيمت قبل أسابيع قليلة في الميدان المقابل للسوق، ثم طلب العمدة من مساعده أن يصنع لي نسخة من تسجيل الفيديو، فلاحظت على رفوف الكتب صحنًا خزفيًّا حديثًا من إزنك صُنع خصّيصًا لحمل صورة العمدة وخلفه

سـوق، فتشجعت وسـألته من أين يمكنني شراء مثل هذه التحفة؟ وبسرعة البرق اسـتدعى المسـاعد ليلفّ الصحن لآخذه معـي! وبينما لا أكاد أجد الوقت في عملي لاسـتقبال ضيف مفاجئ ولو عشر دقائق، اقتطـع العمدة من وقته أكثر من ثلاث ساعات، وقدم لي المشروبات والوثائق والهدايا!

أعتقـد أن السـفر يمنـح الأتـراك فرصًـا لا نهائيّـة لإظهـار حسـن ضيافتهـم بوسـائل مبتكـرة؛ ولأنني امـرأة أجنبيّة، فدائمًا مـا تُبذل الجهود لإعـادة ترتيـب الركّاب في الحافلة بحيث أحصـل على المقعد المرغوب ذي رقم واحد خلف السائق مباشرة، وحينما أصل إلى أحد الفنادق أُستقبل دائمًـا بالاحتـرام، ويحتشـد الخدم لحمـل أمتعتي؛ ذات مـرة تحمّل رُبّان مركبٍ بنفسـه مسـؤولية إرشـادي في جولة إلى جزيرة أكدامار في بحيرة فـان، أمـا في أماسـيا، فقد نبّهني أحد المـارّة أنني أنتظـر الحافلة المتجهة إلى إزينابازار في المكان الخطأ -كيف علم وجهتي!- وسـار معي نصف ميـل إلى مـكان الانتظـار الصحيح، وفـي أنطاليا قدّم لـي صاحب مطعم ذي إطلالـة -للأسـف لم يعد موجـودًا الآن- المثلجات وشـراب النعناع المسـكّر اعتـذارًا عن بعـض المزعجين في المائدة المجـاورة، وعادة تمرّ عارضـات الترفيـه فـي المطاعـم علـى جميـع الطـاولات لإلقـاء التحيّة، واعتـدن أن يتوقفـن عند طاولتي لتحيتي والسـؤال عن اسـمي والترحيب بـي أنـا الضيفـة المميـزة عندهـم، أما فـي ركـن الأرز التركيّ فـي القرى الصغيـرة، فغالبًـا ما أحصل على طعام إضافيّ لم أطلبه؛ لسـعادة العاملين الشـديدة باستقبال ضيف أجنبيّ في ركنهم المتواضـع، وحينما استأجرت سائقًا ليوصلني إلى أطلال قصر كوباد آباد القريب من بيشهير، كان يتوقّف كلّ خمـس دقائق ليقطف لي ثمرة مختلفة من الشـجيرات الغنيّة المحيطة بالبحيـرة، مثـل: التفـاح، الكمثـرى، الخـوخ، البرقـوق، الكـرز، التـوت، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، دعاني إلى متنزه بجوار الحديقة لأشاهد غروب الشمس على البحيرة وأحتسي الشاي مـع أسرته.

وللأتراك -الفخورين جدًّا ببلدهم ذي التاريخ العريق- فِعالٌ في كرم الضيافة تتضمن لفتات ظريفة يظهرونها أمام الأجانب، وكأنَّها أسلوب للتعبير عن سعادتهم بالانتماء لهذا البلد، فهذا رجل من أدرنة كان قد نقل مصنعه خلف الخان الذي شيّده إميكتشي أوغلو أحمد باشا عام ١٦٠٩م، اصطحبني وحدي لجولة في السوق؛ وآخر شيخ احدودب ظهره يتوكّأ على عكّازه في مقبُرة السلاجقة بقرية جيفاس، سار معي ليطمئن على مشاهدتي مقبُرة الشريفة حليمة «قارا قيونلو هانم أفندي» السيدة صاحبة الخرفان السوداء؛ وفي نكسار عند زيارتي المسجد الكبير اصطحبني إمام المسجد لأعلى القلعة، وظلَّ معي طَوال اليوم من بعد الظهيرة، وأخبرني أنه فعل ذلك؛ لأنني أول أجنبيّ يحضر لزيارة مسجده؛ فظنّ أنّ الله أرسلني إليه لحكمة، واعتنى بي جيدًا! ويظهر حسن ضيافة الأتراك أيضًا في جولة خاصة اصطحبني فيها مدير مدرسة جوهر في قيصري ساعتين، وجعلني أوقّع في سجل الزوار، ويظهر كذلك لدى الشيوخ الجالسين في ميدان قرية هورتو أمام النصب التذكاريّ الصغير للبطل الشعبيّ نصر الدين خوجا (جحا)؛ وجدتهم يفسحون الطريق لأتمكن من التقاط صورة ما زالت معروضة على مكتبي حتى اليوم بوصفها رمزًا للفتة طيبة قادتني لأكتشف واحدًا من أجمل الجسور السلجوقيّة في تركيا؛ ويظهر كذلك فيما فعله الرجال في متجر البِقالة المقابل للمسجد السلجوقيّ في بيرجي؛ إذ أخرجوا أكبر مفتاح حديديّ رأيته في حياتي؛ ليفتحوا باب المسجد لأشاهد مصراعيه الأصليّين المنحوتين من الخشب ومئذنته.

ذات مرة ركبت سيارةَ أجرة بعد الظهيرة في سيواس؛ لأزور قبر الشيخ حسن، ثم استأذنني السائق بحياء في أن يصطحبني إلى مكان ما قائلًا: «أعرف مكانًا أشعر أنه سيعجبك كثيرًا»؛ عادة ينبغي أن يحذر المرء من مثل هذه الاقتراحات، لكن لمَ الحذر! أنا في تركيا لم أخش

شـيئًا؛ فاصطحبني لمشـاهدة جسـر «أير» المميز بتقوسه كأنه حرف اللام، ومـا زال صامـدًا فـوق النهر الأحمر رغـم الهزات الأرضيّـة العنيفة عامي ١٩٣٩م و١٩٤٢م التي دمرت كلّ شيء تقريبًا في المنطقة.

كلّ ما أخشاه يا سيدة ماري أن يتلاشى حسن ضيافة الأتراك؛ فأخاف أن تسـتنفد أفواج الأجانب المتدفقة على تركيا الصبر السـرمديّ للأتراك وتمحـو شـعورهم بـأن هـؤلاء الوافدين -غيـر المحترمين عـادة- زوار مـن عنـد الله، لكنّنـي عندما أفكر أن هذه السـمة -حسـن معاملة الأتراك لضيوفهـم- منذ أيام ابن بطوطـة عام ١٣٣٠م حتى ذهابكِ عام ١٧١٨م، أطمئن أن مخاوفي لا أساس لها من الصحة، كل ما ينبغي عليّ فعله هو تذكـر الغرف حديثة الطلاء وصواني البقـلاوة من غازي عنتاب؛ ليطمئن قلبي، نعم، ثمّ نعم، ثمّ نعم، أريد كوبًا آخر من الشـاي!

صديقتكم

قدرية برانـج

Obeikandl.com

صينيّة بقلاوة أُرسلت من غازي عنتاب تكريمًا لي

اجتماع الجيران لشرب الشاي في قيصري

جسر أير في سيواس

قبر الشريفة حليمة في جَفاس

obeikandl.com

الرسالة السابعة عشرة

وسائد وكعك

عزيزتي السيدة ماري،

أفرد في كلّ دفتر ليوميات سفري قسمًا خاصًّا بعنوان: ''أمور لامست شغاف قلبي''، وفيه أسجّل كلّ الأمور الاستثنائيّة المفاجئة خلال الرحلة، وهي لا تقتصر على العجائب المعماريّة والفنيّة والطبيعيّة، بل تضمّ أيضًا اللمسات الإنسانيّة واللقاءات المؤثرة التي تترك بصمتها في نفسي كما تفعل المواقع التاريخيّة والجغرافيّة؛ فالأتراك لا يكتفون بكونهم أكرم شعب في العالم، بل يتجاوزون هذه السمة الجديرة بالتقدير، ويبادرون بأعمال مذهلة لا تُصدق تنُمّ عن طيب العنصر، أعمال تتفق مع أدبهم الجمّ وسمو أخلاقهم الفطريّ، قد تكون هيّنة جدًّا، كتقديم كوب شاي، أو المصافحة، أو كلمة ''تفضل'' بابتسامة دافئة، أو رشّة عطر، وقد تكون قيّمة جدًّا ومفعمة بالطيبة والعفويّة كإهدائك قصيدة أو صينيّة بقلاوة من غازي عنتاب، لكن المذهل أنّك تُفاجأ دائمًا لما في ذلك من لطف ويسر وعفويّة دون تحفّظ حتى إنها تبدو أسلوب حياة، وأنا أعتقد أنها من أهمّ الدلائل المشيرة إلى إنسانيّة الشعب التركيّ الأصيلة؛ يتصرفون كأنهم ملائكة تسير على الأرض؛ فهم يراعونك ويساعدونك دائمًا كي يكون يومك أجمل وأقيم.

obeikandl.com

كيف يمكنني أن أشرح لك هذه اللفتات يا سيدة ماري؟ كان أغلبها أثناء مغامراتي في الطرقات؛ ولأنك نادرًا ما بقيت وحدك لم تقابلي منفردة أيّ تركيّ، وفاتك -في رأيي- أن تستكشفي بعض أغنى الكنوز في هذا البلد.

ربّما لا يبدو متميزًا ما سأقصّه عليك من أحداث، لكن في البيئة المدنيّة الصعبة حيث عشتُ لا يتاح لك الوقت لتتكشّف الأمور كما يحدث في تركيا؛ إذ تُبنى جدران الخصوصيّة الحذرة سامقة حول الناس جميعًا، أمّا الأشياء المميّزة خلال سنوات سفري الطويلة فهي إمّا تقدير بالغ أو إطراء رقيق وإمّا لفتة متواضعة أو هدية قيّمة.

أخبرتك من قبل أن الأتراك يتمتعون بأدب جمّ، ويكثرون من كلمة ''تفضل''، ومن تقديم الشاي، واستقبال كلّ من يقابلونه في حياتهم اليوميّة بكلمة رقيقة، حتى إنّ نهاية رسائلهم توجز اهتمامهم الشديد بالكِيَاسة؛ فلا يكتبون عبارة ''صديقك المخلص'' المملّة، بل يكتبون ''مع احترامي وتقديري''، وقبل أن يطلبوا شيئًا يقولون دائمًا ''بعد إذنك''، وتعلمت منهم أنّ أسرع طريقة للتخلص من أيّ مشكلة تؤثر على أمانيّ أو سلامتي أن أهمِس أو أصرُخ بكلمة ''عيب!'' المزلزلة لصورة التركيّ سبب المشكلة؛ فيهرب سريعًا، ورغم ذلك لم يحدث خلال ثلاثين عامًا من السفر أن تحدّث إليّ شخص بغلظة أو بسوء أدب سوى مرتين، كانتا ردّ فعل تُجاه المواقف المؤسفة لقادتي السياسيّين، وليس غضبًا من شخصي.

قيل لي عدة مرات: إن من أسباب تعامل الأتراك معي بطيبة ولطف أنني أسعى جاهدة لاحترامهم، من خلال ارتداء الملابس الملائمة والتصرف بأسلوب يتماشى مع عاداتهم وآدابهم، والأهمّ من كل ذلك أنّني أتحدّث لغتهم؛ قد يكون ذلك صحيحًا، لكنّ الأتراك يحترمون كلّ الزوّار الأجانب دون تكلّف، بل بأريحيّة وتلقائيّة كما هو الحال فيما بينهم.

يولي الأتراك عناية خاصّة بضعفاء القرية سواءٌ أكانوا مُعَاقين أم فقراء، ويعاملونهم باحترام؛ خلال زيارتي الأولى إلى تركيا كنت أسير في حيّ هادئ، فاقترب مني رجل كفيف يحمل في يده بطاقة بريديّة شاحبة مطويّة الطرف؛ لم أفهم الأمر في البداية، ثمّ أدركت أنه يعرض عليّ أن أشاهد صورة الهرة الصغيرة المطبوعة على البطاقة مقابل عملة نقديّة؛ لم يكن متسوّلًا بالمعنى المفهوم، بل كان يعرض عليّ خِدمة؛ حينها جاء رجل كان واقفًا على مقرُبة منّا وقال: "يا عمّ -نداء احترام لكبار السن- دعْها وشأنها، فإنها أجنبيّة ولن تفهمك"، ثمّ اقترب الرجل وأمسك السائل من ذراعه ليبعده عنّي، وفي الوقت نفسه دسَّ سِرًّا في يده عملة نقدية؛ فلم تُجرح كرامة السائل، ولم يتسبب أحد في إزعاجي، وعلّمني الرجل درسًا مهمًّا عن طريقة السؤال والعطاء في تركيا!

يتجلّى الشعور بالشفقة نفسه تُجاه السائلين في موقف آخر حدث في قونيا، حيث خرجت من صيدليّة بعد شراء الدواء، وجلست في حديقة شاي مجاورة لأستريح وأتناول الدواء؛ فأدرك رئيس الخدم التركيّ الحاذق -وقد لاحظ خروجي من الصيدلية وإمساكي ببعض الأقراص- أنني لست على ما يرام، وقبل أن أطلب الشاي ظهرت سائلة وجلست إلى مائدتي تطلب نقودًا؛ فأسرع النادل بالتدخل قائلًا: "من فضلك اتركيها يا عمّة؛ فهي ليست على ما يرام"، وأخذها من يدها، وأجلسها إلى مائدة أخرى وقدّم لها كوبًا من الماء محافظًا بذلك على ماء وجوهنا نحن الثلاثة، وحينما أردت أن أدفع ثمن الشاي، أخبرني أنه تشرف بتقديمه لي اعتذارًا عمّا تعرضت له من إزعاج في مكان عمله.

وها هي ذي قصتي مع أبله القرية! فصبيحة يوم أحد، وبينما كنت أستمتع بالتجول في هدوء حول بلدة أغيردير، وأشاهد الآثار السلجوقيّة

الرائعة، أدركت فجأة أن ثمّة رجلًا يراقبني دون أن يفعل شيئًا آخر؛ فلم أكترث للأمر ومضيت لما انتويته؛ إذ قررت الانتفاع بمزايا العصر الحديث، وقمت المرة الأولى بنقل الصور من مصوّرتي الرقميّة إلى قرص بيانات؛ لأن المصوِّرة حديثة ولست معتادة على التعامل معها، وخشيت أن ألقي هذه التبعة الكبيرة على عاتق متجر تصوير في هذه البلدة الصغيرة، وقد ضمّت المصوّرة ما التقطتُه من صور طَوال الصيف، وستكون كارثة لو فقدتها في عملية النقل؛ استشعر صاحب المتجر قلقي حيال العمليّة، وحاول طمأنتي بكل الوسائل الممكنة؛ فأحضر من الخلف التقنيّة الشابّة المحجّبة لترِيني أن فتاة مثلي يمكنها فعل ذلك، وبينما أخذت الفتاة الرُّقاقة الثمينة إلى الغرفة الخلفيّة وربّتت على يديّ هدَّأ صاحب المتجر من رَوْعي بأن أجلسني، وقدّم لي الشاي، وعرض عليّ مجموعة صور للمنطقة، وأهداني مجموعة صور أخرى لمنطقة البُحيرة الجميلة تَذكارًا، وما إن هدأت نفسي حتى دخل المتجر فجأة متعقِّبي طوال الصباح، وجلس في المقعد المجاور محدّقًا بي، ثمّ بدأ يهمهم، فما أدركت أنه ضعيف العقل إلا حينئذ، وسرعان ما دخل في أعقابه رجل آخر، وأخبر صاحب المتجر أنّه ظلّ يراقب متعقبي طوال الصباح عندما لاحظ أنه يلاحقني؛ لم أشعر مطلقًا أنّ هناك شخصًا آخر يلاحقني طوال تلك الفترة، شخصًا طيّبًا يحاول الحفاظ على سلامتي سرًّا.

قيّم صاحب المتجر الموقف، واقتاد المعتوه إلى الخارج، ثمّ أجلسه تحت شجرة على الجانب الآخر من المتجر وقدم له الشاي؛ فأسرع الحراس بالخروج خلفهما ونصحوا الأبْلَهَ بهدوء أن يترك السيدة الأجنبيّة وشأنها، ثمّ بقي معي حتى استلمت الرقاقة والأسطوانة المنسوخة من الشابّة المبتسمة، خرجت من المتجر وأنا أعلم أنّني لست معرَّضة لأيّ خطر، وأن متعقبي -الأبله- لم تكن لديه أدنى فكرة أنه أخطأ في شيء.

كانت لقاءاتي مع السلطات تتسم بالوقار والاحترام ولو كنت مخطئة؛ ففي إحدى المناسبات كنت أركب السيارة شرق الأناضول مع صديقة انتقلَت إليها -واأسفاه- عدوى القيادة السريعة أعلى التلال، ولطالما شعرت بعدم الراحة إزاء ذلك -خاصة وأنا أجلس في المقعد الأمامي بجوارها- لكن لا أحد يفضل سماع التعليقات وهو يقود.

وذات ظهيرة قامت صديقتي بهذا السلوك المتهوّر، ولسوء حظها كانت هناك سيارة شرطة تتربّص بأيّ مخالف في الجانب الآخر من التلّ؛ فأمرها الشرطيّ بالتوقف وجاء يتهادى حاملًا مسدسه ومرتديًا نظّارة الشمس القاسية! فلما اقترب منّا تفحّص محتويات السيارة بدقّة، ثمّ طلب منها رخصتها وأوراق تسجيل السيارة بصوت أجشّ، ليدقق فيهما بجديّة حازمة؛ لا شكّ أنّ صديقتي المرتعدة تملّكها الخوف، لكنني شعرت سرًّا بالسعادة؛ لأنها ستتلقّى أخيرًا العقاب على هذا التصرف الخطير... رغم أنني لم أعلم كيف سأخبر والدتها المسكينة في سان فرانسيسكو أنّ ابنتها محتجزة في سجن تركيّ! أعاد الشرطيّ الأوراق إليها ومال نحوها ثمّ قال ببطء وجديّة وحزم: إيّاك أن تفعلي ذلك مرة أخرى؛ هل تفهمين ما أقول؟ إيّاك وتكرارَ ذلك! ثمّ استدار وسمح لنا بالذهاب.

إن هذا الاعتراض الحازم -الوقور في الوقت نفسه- عكس الاحترام للأشخاص المعنيين جميعًا؛ وبالفعل لم تكرّر صديقتي فعلتها مرة أخرى؛ وأيضًا لما قُبض عليّ وأنا أصوّر منطقة عسكريّة بحُسن نيّة، لم أُعامَل إلّا باحترام من المسؤولين جميعًا، بدءًا من الجنود حاملي المدافع الرشّاشة في المقعد الخلفي للسيارة إلى الضبّاط في قسم الشرطة، بل بادروا جميعًا بتوفير سبل الراحة لي.

الغريب في الأمر أن الأتراك لا يقبلون أن يُعاملوا بالطريقة نفسها، ويجدون صعوبة بالغة في تقبّل التصرفات الطيّبة من الآخرين؛ ففي أحد الأعوام قررت أنا وصديقتي أن نقدّم هديّة لمدير فندق في أنطاليا؛ لنشكره على كل ما قدّمه لنا على مدار السنين، وقبل أن نغادر نيويورك اخترنا الهديّة بعناية، وهي مجموعة أقلام قيّمة، ولدى وصولنا إلى الفندق تركنا الهديّة سرًّا على مكتب الاستقبال ومعها بطاقة، وبعد مرور خمس دقائق سمعنا طرقًا على باب الغرفة، ووجدنا الحاجب يعيد إلينا الهديّة؛ فشعرنا بالانزعاج ولم نفهم سبب إعادتها إلينا، وخرجنا لتناول العشاء، ولدى عودتنا وجدنا غرفتنا قد تغيّرت تمامًا؛ فثمّة مناشف جديدة ومُلاءات مطويّة وزجاجات عطر في الحمام وبرانس قطنيّة جديدة ملقاة على الفراش وأزهار في زهريّات وسلّة فواكه ضخمة وبطاقة شكر... كلّ هذا في مقابل الهديّة التي لم تُقبَل! ربّما شعر المدير بالحرج من طريقتنا –التركيّة– في التعبير عن امتناننا، لكنه قدّر جهودنا فرد الصنيع بالطريقة التركيّة المعتادة.

من الوسائل الأخرى لتألّق الأتراك في التعبير عن طيبتهم المجاملات المتنوعة العذبة الصريحة المبتكرة؛ ولأنهم لا يخجلون مطلقًا من التعبير عن أنفسهم؛ فقد تجدهم في أغلب الأحيان صرحاء جدًّا في عواطفهم، رغم أنّ هذه الرقة الصريحة نادرًا ما تظهر بحرية في ثقافتنا الغربية، وقد ذكرتِ –يا سيدة ماري– مجاملة مؤثرة جدًّا قدمتها لكِ صديقتك فاطمة: ”بدأت أخبرها (فاطمة) عن الضجّة التي قد يثيرها جمال وجهها في لندن أو باريس! فأجابت بلطف: لا أصدقك، لو كان الجمال عالي الشأن في بلدك كما تقولين لما تركوك ترحلين“.

بعض هذه الإطراءات تمسّ شغاف القلب بالفعل، إنّ المجاملات

المصحوبة بالورود أو الآتية من خاطب طموح تكون رائعة بالطبع، إلا أنّ إطراء النساء لي أحبّ إلى قلبي، كإطراء فاطمة لك يا سيّدتي!

ذات مرة كنت أتجوّل في متجر بِقالة في قيصري لاختيار بعض الأصناف ومشاهدة صفوف السلع المعروضة للبيع، وهي تسلية تمتعني دائمًا في أسفاري، شعرت أنّ هناك من يتعقّبني، وبلمح البصر التفت فوجدت شابّة تعمل في المتجر؛ فمن الشائع جدًّا أن يُتعقّب المرء في متاجر البِقالة الصغيرة والصيدليّات في نيويورك، لكنّ هذا يعني دائمًا شكّ حارس الأمن في قيامك بالسرقة، لكنّ تلك الشابّة بدت مختلفة، وبدأت تقترب منّي مع كل ممرّ أقطعه، أخيرًا دنت منّي وابتسمت لي ابتسامة عريضة، ثمّ أخذتني من يدي إلى قسم الفاكهة، وشجّعتني أن أتفحّص ثمار الخوخ لديها قائلة: ''إنها صابحة جدًّا!'' وظلّت تأخذني من رفّ إلى آخر، وتعرض عليّ بضاعتها بحماس كطفل يعرض لعبه المفضلة لأحد الضيوف، وأخيرًا نظرت إليَّ وقالت: ''أنا معجبة بك، فلديك عينان جميلتان؛ أنت جميلة! من فضلك عودي مرة أخرى عسى أن نصبح صديقتين!'' بالفعل كنّا سنصبح صديقتين مقربتين كصداقتك أنت وفاطمة؛ فهذه المرأة المحبَّبة لا تُقاوم، مثلها مثل الفتاة ذات الاثني عشر ربيعًا التي كانت تساعد والدها في أحد مطاعم أكتشابات لنقص العاملين تلك الليلة؛ فقدّمت لنا الطعام باحترافيّة كاملة تتوقعها من كبير نُدُل مخضرم في مطعم ذي نجوم أربعة؛ تصرفت الفتاة بطريقة فتاة المتجر نفسها؛ فلم تتركني لحظة، بل ظلّت إلى جواري عندما ذهبت إلى الحمام، وفتحت لي صنبور الماء، وقدّمت لي منشفة، وفتحت لي الباب لأخرج، وعلى المائدة ظلّت تحوم حولي؛ لتضع الملّاحة أمامي، وتصبّ لي الماء، وتطوي منديلي استجابة لأيّ حركة من حركاتي؛ وحينما استفسرت من صديقي التركيّ عن سبب اهتمامها بي ضحك قائلًا: إنها معجبة بك!

obeikandl.com

فقـد أخبرتني أنهـا تجدك جميلة جدًّا؛ بالطبـع عندمـا حان وقت الرحيل، اقتربـت الفتاة ولوّحت لي مودّعة، ولما وصلت باب المطعم نادت بأعلى صوتها حتى سمعها من في المطعم جميعًا: أنا معجبة بك جدًّا!

أخبرتك سـابقًا يا سـيدة ماري، أن تركيا بلد اللفتات الصغيرة المؤثر بعضهـا بدرجـة هائلـة، واللفتـة التركيّة المفضّلـة لديّ هي مـا أطلق عليه ''اليـد السـحريّة'': فـإذا كان بمقدور الشـخص التركيّ أن يمـدّ يد العون فـي أيّ موقـف، فسـيمدها؛ فتلـك الأيـدي لـن تكـفّ عـن المسـاعدة؛ يـدرك الأتراك سـلَفًا ما يجـب عمله، ويسـارعون بتنفيذه كأنّمـا يحملون في أيديهم العصيّ السحريّة.

وصلـت متأخـرة ذات ليلة إلى محطة حافلات توقـات لأجد المكان يعمّه الهرج، واكتشفت أن السبب عطلة الجنود، كانوا عائدين إلى منازلهم وأسـرُهم الكبيرة في اسـتقبالهم، نزلت من الحافلـة وتركت حقيبتي على الأرض لحظات كي أضـع شيئًا في محفظتي، وعندما نظرت ثانية كانت قد اختفـت! نظرت حولي بعـد أن تملّكني الرعب، فرأيت رجلًا تركيًّا قصيرًا قـويّ البنيـة يركض ممسـكًا بحقيبتي تحـت إبطه؛ فانطلقـت أجري خلفه ورأيته من بعيد يضعها عند بداية موقف سيارات الأجرة، لم يكن يعرفني، لكنّـه عرف أنّني نزلت من تلك الحافلة وحدي، وليس لي عائلة تنتظرني، وأنّني سأحتاج إلى سيارة أجرة، وعلى الفور امتدت يد المساعدة السحريّة الخفيّة فطريًّا لتحمل الحقيبة، وبعد أن وضعها، عاد مسرعًا ليساعد الأسرة التي حضر معها دون أن يوجه إليّ كلمة واحدة أو يدعني أشكره.

وفي مناسبة أخرى في قيصري، كنت أنتظر الحافلة ومعي حقيبة ثقيلة وإلـى جواري فلّاحة ترتدي سـروالًا فضفاضًا وتحمل طفلًا بين ذراعيها، حينما انفتح باب الحافلة بمثل لمح البصر، احتضنت المرأة فورًا رضيعها

بذراعيها ثمّ وضعته على فخذها، وأمسكت مقبض حقيبتي بيدها الأخرى، ثمّ بدأت ترفعها على السلالم؛ لقد امتدت يدها تلقائيًّا، ومنحتني في لحظة خاطفة الدفعة الأولى؛ لتجعل تحدي صعودي السلم سهلًا.

أخبرتك قَبْلًا أنّ هناك تركيًّا خلف كل شجرة يراقب ما يحدث، لا يمكنني أن أحصي عدد العيون والأيادي الخفيّة التي تعتني بي كأنها ملاك يحرسني، مثل ذلك الرجل في أيْردر؛ فهم جميعًا دائمًا يحرسوني، ليتأكدوا أنّني ركبت الحافلة الصحيحة، أو دخلت من الباب الصحيح، أو اخترت أفضل ثمرة خوخ، لا تكلف هذه اللفتات شيئًا ويمكن لأيّ شخص أن يقدّمها، لكنّها أثمن في عفويّتها من الخمسين صنفًا التي قُدمت لك يا سيدة ماري!

سبق أن حدثتك عن بساتين الورد التي عُرضت عليّ على مدار السنين، لكنّ الأمر أكبر من ذلك؛ فعندما تتعثرين، يرفعونك ويقدمون لك مقعدًا بمنتهى الحنان، وعندما تشعرين بدوار نتيجة الحرّ الشديد يقدمون لك كوبًا من الماء لينعشك؛ وهم مستعدون لمنحك تذاكر للحافلات، وعندما تكونين واقفة على جانب الطريق في انتظار الحافلة يعرضون توصيلك إلى المدينة في عربة المزرعة، وعندما تدخلين إلى صيدليّة لشراء الأسبرين، يقدمون لك مقعدًا لتستريحي وكوب ماء، وهم مستعدون لغلق متاجرهم وأماكن عملهم لاصطحابك إلى أماكن مختلفة، والأغراض التي تنسينها في سيارة الأجرة يعيدها السائق إلى فندقك، ويقدمون لك ثمار الفاكهة وأكواب الشاي كلّما سنحت لهم الفرصة، تتجلى هذه الطيبة في أحمد موظف استقبال الفندق في توقات يختتم برقيته لي بوجه مبتسم وعبارة ''حفظك الله''.

ذات مـرة كنـت في زيـارة لمدينة كرامان ذات الواحـة، وأردت زيارة خـان الولي الشـيخ عـلاء الدين كراباش، لكنّني لم أتمكـن من الوصول إليـه؛ كنـت أشـعر بالحـرارة الشـديدة والإحبـاط لكنّنـي عقـدت العـزم علـى العثـور عليـه؛ لهـذا دخلـت متجـر حـلّاق وطلبـت مسـاعدته فـي معرفـة الاتجـاه الصحيح؛ بـدأ الحلّاق يُشَـاوِر زَبونًـا أمامه، ثـمّ أجابني: ''لا توجـد مشـكلة!'' وتـرك الرجـل جالسًـا فـي المقعد ووجهـه مغطّى بالرغوة، واصطحبني إلى المجمـع وكان بعيدًا!

أما في مدينة قيصري، فقد ذهبت صباح أحد أيام الآحاد مبكّرًا لأزور أطـلال قصـر كيقوبادية على أرض مصنـع السـكر والمياه، ولمكانة دليلي المؤرخ محسـن إلياس صوباشي -فضلًا عن قدرته الهائلة على الإقناع-؛ استطعنا إقناع الحارس المناوب أن يسمح لنا بالدخول، لكنّه وافق بشرط أن يظـلّ ملازمًا لنا لأسـباب أمنية؛ وفور انطلاقنا فـي الطريق صاح فجأة: توقفـا! كاد قلبـي يتوقـف خشـية أن يكون قد غيّر رأيه بشـأن السـماح لنا بالدخول، لكن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد دخل أحد المباني وعاد مسـرعًا إلى السـيارة حاملًا بين ذراعيه الكثير من زجاجات المياه والصودا الباردة لنأخذها معنا، واتضح لنا أنه لم يكن يعرف أنه لا يحرس مصنعًا فحسب، بل قصر أعظم السـلاطين السـلجوقيّين علاء الدين كيقوباد؛ سـيظلّ للأبد يتذكـر درس التاريـخ المذهـل الـذي تلقـاه ذلـك اليوم من هـذا المؤرخ الشهير، وسأظل أتذكر زجاجات المياه التي أهداها لنا!

ومـن أمثلـة اللفتـات الصغيـرة الأخـرى مـا قام بـه عامل بنـاء يعمل في مستشفى مدينة أماسيا، عندما اصطحبني إلى موقـع الترميمات المغلق وأخذني في جولة حول المكان؛ لأنه شعر بفضولي واهتمامي بما يفعل.

تلقيت لفتة أخرى صغيرة في حيّ سافرانبولو في متجر مَلْبَن رائع يرجع إلى عام ١٩٤٢م، ويتميّز بسلامة زجاجه الأصليّ المصقول وزينته الخشبيّة المنحوتة، رآني صاحب المتجر من المدخَل، وشعر أنني سيغشى عليّ في الشارع؛ فخرج، وأمسكني من ذراعي، وأدخلني إلى متجره، وقرّب لي مقعدًا لأستريح عليه.

تعرضت لموقف آخر في توقات في متجر لبيع الفاكهة، فقد شعرت أيضًا أنني سأفقد الوعي بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وسرعان ما قُدِّمَ لي قفص خوخ لأجلس عليه، وفي اللحظة عينها دخل صبيّ صغير إلى المتجر لتسليم الغداء لصاحب المتجر -خبز تركيّ بالجبن مخبوز في الفرن-، فوضع المالك اللفافة الدافئة على حجري وكلّه جديّة، وقال: تفضلي، لا بدّ أن تأكلي هذا كي تتحسني! ولم تفلح كلّ اعتذاراتي في تغيير رأيه أو إقناعه بأن يأكل معي على الأقلّ.

لا يقتصر الأمر على الخبز التركيّ والشاي والزهور التي يغرقني بها الأتراك، بل كلّ أنواع الفاكهة أيضًا؛ كنت في أماسيا ذات مرة، وكنت قد قضيت أربعين دقيقة في حمام السباحة، وحينما خرجت وجدت على الطاولة الصغيرة بالقرب من مقعدي صحنًا لم أطلبه، فيه ثمرة خوخ مقشرة ومقطعة وبجوارها كوب من العصير الصابح، وكذلك عندما كنت أزور مسجد الإمام عمر بك في بورصة، كنت مأخوذة بمشاهدة حجر الأساس العائد إلى عام ١٤٥٤م المعلق بجوار الباب على لوحين منفصلين من الرخام، حتى إنّني لم أنتبه للصبيّ الذي اقترب منّي، ثمّ قام ببطء مادًّا كفيه المضمومتين إليّ، بدت بداخلهما حبّات من اللؤلؤ الثمين؛ كانت في الواقع حبّات التوت الأبيض الصابحة، جمعها لي من الشجرة في ساحة المسجد؛ إنها المرة الأولى في حياتي أتذوق هذه الثمار الغضّة عسليّة المذاق.

أمّـا فـي قونيا، فقد قطف لي حارس مدرسـة قاراتاي ثمار المشـمش الصابحـة مـن الحديقة، وكان ذلـك موقفًا آخر أتاح لي فرصة الاسـتمتاع باللفتـات الصغيـرة المذهلـة، كذلـك تلقيـت دعـوة لزيـارة ديـر الشـيخ تورَسَـان على قمة أحد الجبال النائية في الطريق بين قيصري وأورجوب، وقبل الذهاب إلى هناك بالسـيارة ''الجيب'' توقف مضيفي شـعيب توركَر عند متجر بِقالة لشـراء الفاكهة الصابحة ليهديها للبواب وأسـرته، وحينما عرضـت الإسـهام فـي ثمنها، قُوبل عرضـي بالرفض طبعًا، بل وأشـعرني مضيفي أنّني ارتكبت ذنبًا فادحًا في حقِّه.

مـا إن وصلنـا إلى الديـر وأنزلنا حقائب البطيخ والخوخ والمشـمش والعنب الكثيرة من السيّارة حتى وضعها شعيب كلّها بين يديّ، وفور خروج البـواب وأولاده للترحيـب بنـا، دفعني شـعيب برقة وقال لـي: ''تفضلي! لا تخجلـي، قدمـي لهم الفاكهـة!'' كانت هذه طريقته في مسـاعدتي على التعـرف إلى الأسـرة وإقامة صداقة معهم، كأنّمـا كان إحضار الفاكهة لهم ودفـع ثمنها مني أنا!

غيـر أنّ أكثـر اللفتات الصغيرة تأثيرًا في النفـس تلك التي يقدّمها لك الفقـراء الذيـن لا يملكون شـيئًا لتقديمه سـوى طيبة قلوبهم، فتسـمو بهم لفتاتهـم إلى مكانة من النبل أعلى من مكانة السـلاطين؛ ذات مرة وأنا في توقات جلسـت علـى الجدار المنخفـض المحيط بمسـجد هاتونية أنتظر انتهاء شـعائر الصلاة كي أتمكن من دخول المسـجد والتجول فيه، فدبّ نحـوي رجل محدودب الظهـر ينتعل حذاء لامعًا وأعطاني غِرارة لأجلس عليها، كانت متسخة أكثر من المكان، لكنّ المهمّ أنه قدّم لي شيئًا، ورغم فقره استطاع أن يقدّم لي شيئًا مفيدًا.

اتضح لي فيما بعد أن أهالي توقات يسعدون بتقديم الوسائد؛ ففي مناسبة أخرى كنت خارج مسجد جاريبلر أنتظر انتهاء الصلاة لأدخل، رأتني عجوز من نافذة منزلها المجاور، فخرجت حاملة سجادة كِلِيم ملونة لأجلس عليها.

سيدة ماري، هل سبق وقمت بعمل هيّن يراعي الآخرين بصدق؟ لا أعتقد أنّني فعلت، وقد مررت مرتين مختلفين بتجارِب لا تُنسى تعكس كرمًا لأشخاص فقراء؛ حينما كنت أزور أحد أحب المساجد في تركيا إلى قلبي: مسجد مراد الأول خودافاندجار على قمة تلّ تشيكيرجيه في بورصة، يرقد في هذا المجمع الروحانيّ الهادئ جثمان السلطان مراد الأول –أحد أشهر السلاطين العثمانيين– في ضريح بالجهة المقابلة لمسجده الهائل، وثمّة حديقة شاي تحيط بالضريح، وقد اعتدت التوقف للاستمتاع بالأشجار والأزهار هناك، والاستماع إلى حفيف الأشجار في هذه البقعة المرتفعة فوق المدينة، ومراقبة المسجد المهيب من الجهة المقابلة للشارع، والتفكر في حياة هذا السلطان المأساويّة المنتهية بمقتله في معركة كوسوفا على يد صربيّ غاضب... وأنا جالسة هناك ذات مرّة، اقترب منّي شيخ مُعْدِم ومدّ إليّ يده –المتسخة جدًّا– بإحدى ثمار الخوخ البورصيّ الشهير، وعندما نهضت لدفع ثمن الشاي أخبرني النادل أن ثمنه قد دُفع؛ كان الشيخ فقيرًا ويداه متسختان، ورغم ذلك منحني ثمرة خوخ صابحة وكوبًا من الشاي كما لو أنّه دعاني إلى وليمة.

وفي مناسبة أخرى بعد زيارة طويلة للمسجد كنت متعبة في نهاية اليوم حتى إنّني لم أتمكن من هبوط التلّ؛ لذا قررت أن أستقلّ سيّارة أجرة إلى الفندق، وقبل أن أركب، اصطحبني السائق إلى مؤخرة السيارة، وفتح حقيبتها، وتناول رغيفًا من أكثر من عشرة أرغفة ساخنة

اشتراها لأسرته على مائدة العشاء، كانت رائحة الخبز شهيّة كما لو كانت حقيبة السيارة مخبزًا صغيرًا! ثمّ وضعه بين يديّ قائلًا: ''تفضلي! هذا لعشائك!'' لقد فعل مثل ذلك الشيخ في حديقة الشاي، أهداني ما توفّر لديه، الأمر الذي أضفى على الهدية سخاء وجودًا.

غالبًا ما يقدّم سائق سيّارة الأجرة أكثر من مجرّد توصيلة، كما أوضحت سابقًا؛ وأنا في طريقي إلى مطار توقات لأستقلّ الطائرة العائدة إلى إسطنبول حاورت السائق، فأخبرته عن مدى إعجابي بالمدينة أكثر من كلّ مدن تركيا؛ فسألني عن الأسباب، وكلّما أخبرته بسبب أومأ برأسه وابتسم، وفجأة توقفنا على جانب الطريق وخرج من السيارة واختفى! وعندما بدأت أسأل نفسي عمّا يفعل وخشيت أن تفوتني الطائرة، عاد مسرعًا وفتح باب السيّارة ووضع في حجري كيسًا بلاستيكيًّا به ثلاثة أكيال من ثمار الخوخ الناضجة، وقال: هذه لك، إنها هديّة صغيرة لتتذكّري بها توقات؛ كي لا تنسينا في المدينة الكبيرة إسطنبول، فرغم حاله المتواضع، منحني هديّة ثمينة، ولا داعي لأن أؤكّد أنّها كانت ألذّ ثمار خوخ تناولتها في حياتي.

أرقّ لفتة تلقيتها كانت من مجموعة مراهقات في سيواس؛ ذات ظهيرة عرّجت على حديقة شاي رائعة في ميدان كوناك الرئيس بوسط المدينة لأستريح قليلًا، لاحظت وأنا أحتسي الشاي ستَّ مراهقات جالسات على الطاولة المجاورة يحتسين الشاي ويتحدثن ويضحكن ومعهنّ لفّة بها قالب كعك منزليّ الصنع، ربّما كنّ يحتفلن بيوم ميلاد إحداهنّ أو بانتهاء العام المدرسيّ أو ربّما يستمتعن بصداقتهنّ، كنت مستغرقة جدًّا في أفكاري وفي كتاب أقرؤه حتى إنّني لم أنتبه للفتاة القريبة من طاولتي، كانت تحمل في يدها قالب الكعك المنزليّ مقطّعًا شرائح، قرّبت الصحن

منّي وقالت: تفضلي! يسعدنا أن نقدّم لك شريحة من كعكتنا، أتمنى أن تعجبك؛ فقد صنعتها بنفسي! تأثرت كثيرًا بمنحي الشريحة الأولى، والأهمّ من ذلك والغريب في الوقت ذاته أنّ ذلك اليوم صادف يوم ميلادي، وكأنّ الفتاة علمت ذلك! ومن بين كلّ الكعك بالقشدة اللذيذ المزيّن في احتفالات يوم ميلادي، لم أذق كعكة ألذّ من هذا القالب المجرّد؛ إذ قدّمته فتاة لا أعرفها تعلو وجهها ابتسامة عريضة.

يتمتع الأتراك بشخصيّات قويّة تتوافق مع جوهرهم الحنون الرقيق، ويمكنهم تقديم لفتات كبيرة بخلاف تلك اللفتات المتواضعة، فعلى سبيل المثال: أزلت عدساتي اللاصقة في بداية رحلة من نيويورك إلى إسطنبول، فطارت العدسة -وا أسفاه- في الهواء، ولم يحدث هذا من قبل، ولم أعلم أين وقعت؛ ظللت أبحث حول مقعدي لكنّ العثور عليها في منطقة مغلقة ومزدحمة كالطائرة كان ميئوسًا منه، وبعد أن حطّت الطائرة وعبر الجميع الممر المجاور لي، قرّرت أن أبحث مرّة أخيرة في المنطقة المحيطة بمقعدي، وسرعان ما انضمت إليّ أربع مضيفات وهنّ عازمات على العثور على العدسة، ورغم إرهاقهنّ عقب رحلة استغرقت اثنتي عشرة ساعة ولهفتهنّ أكثر منّي على مغادرة الطائرة الحارّة، لم تبدُ عليهنّ أدنى أمارة للاستسلام، وظللن يزحفن على أيديهنّ وأرجلهنّ كأطفال صغار يبحثون عن كنز، وفجأة صاحت إحداهنّ: وجدتها! ما زلت لا أعلم كيف عثرت تلك الشابّة على شيء بهذا الحجم! وكيف ظلت العدسة سليمة طوال الوقت! لكنّ الفتاة آمنت أنّها تستطيع أن تعثر عليها، ولأنّها تركيّة تتميز بالمثابرة والعناد فقد تمكنت من تحقيق معجزة.

تكون اللفتة الطيّبة الكبيرة سريّة أيضًا؛ حينما كنت في متجر لبيع الكتب في قيصري أراد صاحبه أن يمنحني هديّة، ووضع كتابًا بين يديّ،

لـم يكـن كتابًا عاديًّـا، بل كان مجلّـدًا بجلد أحمر زُيّنـت حروفه وحوائفه بالذهـب، تفحصـت الغِلاف، فوجدت الكتاب نسـخة فاخرة من الترجمة الإنجليزيّـة الجديـدة لمعانـي القرآن الكريم؛ كلّ سـورة مترجمة تسـبقها صفحـة مـن التنبيهـات التوضيحيّـة مـع صـورة للنـصّ العربـيّ الأصليّ فـي هامش جانبيّ صغيـر؛ بوصفي أمينة مكتبة انبهرت بالمسـتوى الرفيع للطباعـة، وبوصفـي ضيفـة تأثـرت لمحاولة هـذا الرجل فتح بـاب هائل في حياتي عبر هذه الهديّة.

كثيرًا ما يمكن محو الحوادث المؤسـفة بتلك اللفتات الكريمة؛ ذات مـرة ركبـت الحافلـة مـن أغيردير إلـى قونيا، وأول مـرّة منذ ثلاثيـن عامًا مـن السـفر أجلس فـي آخر الحافلة فـي الصفّ الأخير وبجـواري رجل، كان الموقـف مفاجئًـا، ولا بد أن أعتـرف أنّني انزعجـت، لكنّني راجعت نفسـي وتذكـرت جلوسـي كلّ صبـاح فـي قطـار الأنفـاق بجـوار رجل، إذًا مـا سـبب انزعاجـي؟ لـم أنتبـه للرجـل بجـواري، ولـم ألحظ سـوى أنه كهل ضخم اليدين، وفجأة بدأ يهمهم؛ فوقـع في نفسي حينها أنّه يتصرف بوقاحة، ورغم أنّني تعرضت لهذا الموقف عدّة مرات في قطار الأنفاق في نيويـورك وباريس، فلـم أتصوّر أن أتعرّض له في تركيـا، أول مرة أجالس رجـلًا فـي المواصلات العامّة؛ وهـذا ما ضايقني بشـدة، فأخذت حقيبتي ووقفت فجأة واندفعت نحو السائق ومساعده، وطلبت تغيير مقعدي فورًا، ورغم أنّني لم أوضح السبب، فعلى الأرجح أدركا ما حدث، وفي الصباح التالي اسـتيقظت فجأة السـاعة الخامسـة صباحًا من نوم عميق واندفعت مـن الفـراش أصـرُخ: المصـوِّرة! أين ذهبت؟ كيـف علمت أنهـا لم تكن في حقيبتي! وكيف جاءني هذا الخاطر في تلك اللحظة بالذات أثناء نومي! لن أعرف إجابة هذين السؤالين أبدًا! قلبت الغرفة رأسًا على عقب، لكنّني لم أجد شيئًا كما أخبرني الحلم الذي راودني، وتذكّرت الفوضى وموقف

الحافلة أمس قبل وقوع المصوّرة من حقيبتي، فأحضرتُ عُقْب التذكرة وانطلقت إلى محطة الحافلات، وتوجّهت إلى مكتب شركة الحافلات وسردت قصّتي؛ قام الموظف بإجراء بعض الاتصالات وقال لي بعد خمس دقائق: تفضلي بالجلوس يا سيدتي، سيحضرها أحدهم الآن، فقد عثروا على شيء ما؛ وفورًا ظهر كوب من الشاي أمامي، تمنيت بشدة أن ما عُثر عليه هو المصوّرة؛ ففيها صور الصيف كلّه، وضياعها يعني ضياع رحلة كاملة وذهاب الوقت والنقود سُدًى، بعد مرور خمس عشرة دقيقة ظهر ستة شبّان فيهم مساعد السائق في حافلةِ أمس، وكانت مصوّرتي معهم، بدأت أبكي من الإحباط وألوم نفسي على إهمالي الشديد وإضاعة تلك المصوّرة القيّمة، وشعرت بالحزن كلّما تذكرت الموقف، كما أدركت أنها الذكرى الخامسة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر المؤلمة لأهالي نيويورك جميعًا؛ لم أتمكن من التوقف عن البكاء، رغم أنّني بدأت أشعر بالراحة والقليل من الخجل، وأخيرًا همهمت للرجال ببعض كلمات الشكر وخرجت، ثمّ أدركت مدى فظاظتي؛ فمسحت دموعي وعدت للموظف وأخبرته أنّني أريد أن أقدّم لهم جميعًا شيئًا صغيرًا تعبيرًا عن امتناني، فأجابني: كلّا يا سيدتي، نحن الذين نود أن نشكرك على منحنا هذه الفرصة لنخدمك؛ وأعادت ابتسامته كلّ الأمور إلى نصابها.

كما أشرت من قبل، فإن الأتراك يتمتعون بنظام رادار داخليّ يتيح لهم التقاط كلّ ما يحدث حولهم، فلا شيء يفوتهم ألبتة؛ في أحد الأعوام قررت في عطلة عيد الميلاد أن أصطحب زوجي إلى إسطنبول، وراسلت فندق ''أرينا'' أطلب منه حجز غرفة مميّزة لنا؛ لأنّ هذه الرحلة هدية منّي لزوجي في عيد ميلاده، وبالفعل عندما وصلنا وجدنا الفندق قد خصّص لنا أفضل غرفة تطلّ على جامع سوكولّو محمد باشا؛ أهمّ جوامع المعماريّ سِنان، وفي ليلة رأس السنة الموافقة ذكرى ميلاد زوجي عدنا إلى الفندق

متأخرين بعد الظهيرة نشعر ببرد تغلّفه السعادة بعد رحلة طويلة بمركب شراعيّ في البوسفور، وعقب وصولنا بدقائق سمعنا طرقًا على الباب، وعندما فتحت وجدت نادلًا يحمل صينيّة عليها أطباق ومناديل وكعكة فاخرة غالية تزيّنها الشموع بجوارها بطاقة من العاملين في الفندق يتمنون لزوجي عيد ميلاد سعيد! لا بدّ أنّهم لاحظوا تاريخ ميلاده في جواز سفره، وتذكروا طلبي في البداية، فأخذوا على عاتقهم مهمّة إضفاء لمستهم الخاصّة على عيد ميلاده، ورغم أنّ الكعكة كانت مزيّنة ومزخرفة أكثر من الكعكة الرخيصة التي تلقيتها في سيواس، فقد شعر زوجي بشعوري نفسه؛ شعر أنّه لم يتذوق في حياته كعكة عيد ميلاد ألذّ منها.

لا تقتصر هذه اللفتات الكريمة على تركيا فقط؛ فالأتراك يحملون هذه السمة في تكوينهم أينما ذهبوا، ويتصرفون وَفْقًا لها أينما حلّوا، عندما كنت أعيش في باريس اعتدت تناول الطعام في مطعم تركيّ صغير، ونشأت بيني وبين العاملين هناك صداقة، وذات مساء أبلغتهم أنّني سأنتقل إلى شقة جديدة غدًا، وأخبرتهم كم أنا سعيدة بالانتقال إلى حيّ أرقى! وسألني ميتن رئيس النُدُل: ''أين تقطنين الآن؟ وإلى أين ستنتقلين؟'' فأجبته دون انتباه، وكان عليّ أن أنتبه! في تمام الساعة الثامنة صباح اليوم التالي بينما بدأت أنقل أمتعتي من الشقة إلى سيارتي الصغيرة، وقفت شاحنة صغيرة بيضاء أمام منزلي، وترجل عنها ستّة أتراك مفتولو العضلات لا يتحدث أيّ منهم الفرنسيّة، قال لي أحدهم: ''أرسلنا ميتن لنساعدك في الانتقال اليوم كي نضمن أنّ كلّ شيء على ما يرام، فأصابني الذهول، واندفعوا أعلى السلالم كما تصعد السناجب الشجرة بسرعة، وفي وقت قصير كانت أيديهم السريعة وعضلاتهم القويّة قد وضعت كلّ شيء في الشاحنة، وقادت الشاحنة إلى عنواني الجديد، وحملت كلّ شيء إلى الأعلى مرّة أخرى عبر ستّة ممرات طويلة ضيقة وصولًا إلى شقتي

الجديدة تحت ظُلّة سقف باريسيّ، أتموا المهمّة كلّها في أقلّ من ساعتين ثـمّ اختفـوا في لمـح البصر دون أن تُتـاح لي الفرصة أن أقـدّم لهم كوب مـاء أو وجبـة غداء أو هدية أو أن أشـكرهم، قاموا بذلـك؛ لأنّ ميتن علم أنّ امرأة بمفردها تحتاج إلى المسـاعدة، فطلب مسـاعدتهم، قاموا بذلك؛ لأنّهم رجال يجودون بوقتهم وقوّتهم؛ لم أشعر بالسعادة في أيّ منزل آخر طَوال حياتي كما شعرت بها في ذلك المنزل المرتفـع في الطبقة السادسة فـي باريـس، وأنا مقتنعـة أنّ السـبب يرجـع إلـى البداية المبشّـرة لحياتي فيه بفضل طيبة هؤلاء الأتراك وكرمهم.

سـيدة ماري، هذا ما عَنَيْتُه عندما أشـرت في بداية رسالتي إلى الأمور التي لامسـت شِـغاف قلبي، فهذه اللفتات الكريمة -المتواضعة العظيمة- من أقيم الهدايا في حياتي، ولن أقبل التنازل عن أيّ منها مقابل أيّ شـيء فـي الدنيـا، لـن أتنازل عن شـريحة قالب الكعـك، ولن أتنـازل عن دقيقة قضيتها على الوسادة المتَرَّبة، ولن أنسى يدًا امتدّت لمساعدتي، لقد زادت هذه اللفتات الرائعة من ثراء تجربتي في حياتي.

صديقتكم

قدرية برانج

obeikandl.com

كعكة عيد الميلاد التي أهداها فندق ''أرينا'' إلى ستيفن إي جوتليب، إسطنبول في الثالث من ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٥م

obeikandl.com

الرسالة الثامنة عشرة

مكنونات نفيسة

عزيزتي السيدة ماري،

وُلدتِ في أحد أرقى المنازل في إنجلترا: قصر ثورسبي هول المَهيب في ريف نوتنجهامشير المخضّر على الدوام، المشيّد بهندسة المعماريّ الإيطاليّ بالاديو، ويضمّ مئتين وخمسًا وسبعين غرفة، على ضيعة من مئات الأفدنة تنتهي بأرض لصيد الغِزلان، وبحيرة مِساحتها خمسة وستون فدّانًا، وقناة تمتد رُبع ميل لتعبر الحدائق الرسميّة وتغذّي عدّة فوّارات؛ كلّ هذا أهّلك للموازنة بين منزل أسلافك للمصمّم الإيطاليّ بالاديو ومنزل الشريف التركيّ حيث أقمت في أدرنة، وكالعادة لم تَغْفُل عينك الثاقبة عن أيّ شيء؛ فقدّمت لنا وصفًا مفصّلًا لأدقّ التفاصيل المعماريّة والأثاث:

> ”ينقسم المنزل -كبيرًا كان أم صغيرًا- إلى قسمين منفصلين يربطهما ممرّ ضيّق؛ أمام الأول ساحة كبيرة، وحوله شُرَف مفتوحة، وهو أمر أجده ملائمًا جدًّا؛ تؤدي هذه الشُّرَف إلى الغُرَف كلّها الواسعة في الأغلب ذات الصفيّن من النوافذ، أحدهما من الزجاج الملوّن... يخصّ الشريف، بينما يُطلق على المنزل المجاور اسم حريم الدار، أي: شقّة السيّدات... وهي أكثر بهجة وروعة سواءٌ في ألوان الطلاء أم نوع الأثاث؛ أمّا ثاني الصفّين، فمنخفض

جدًّا تغطّيه قضبان متوازية تشبه قضبان الأديرة... لا توجد ستائر ألبتة؛ لأنّ الجدران الداخليّة للغُرَف مغطّاة بخشب الأرز المزيّن بمسامير فضيّة أو المزخرف بنقوش الأزهار، وفيه عدّة أبواب مصاريعها قابلة للطيّ يمكن استخدامها خزانات، أجدها في رأيي أكثر نفعًا ممّا لدينا، تتصل النوافذ بقناطر صغيرة لوضع جِرار العِطر أو سلال الزهور، لكنّ أكثر ما يسعدني الفوّارات الرخاميّة أسفل الغرفة؛ إذ تنبثق منها عدّة فوّهات معًا، فتضفي برودة رائعة وتصدر خريرًا ممتعًا... ويحتوي كلّ منزل على حمّام من غرفتين صغيرتين أو ثلاث...''

إنّ وصفك يشبه كثيرًا المنازل العثمانيّة المرمّمة التي زرتُها في تركيا، وقد حُوّل أكثرها إلى متاحف في مدن مثل: كوتاهيا، وبيرجي، وسيواس، وتوقات، وديار بكر؛ ساعدتني هذه المتاحف على تخيّل حياة أصحابها، كما شغلتك حياة الناس في منزل ''الشريف التركيّ'' في أدرنة؛ علمت منها أنّ الجدران كانت تُبيّض بالجِصّ، وأن الأرضيّات كانت تُغطّى بكِلِيم أخضر شاحب، ولاحظت الاعتناء الشديد بتفاصيل المشاهد البهيجة على الجدران والأسقف الخشبيّة، وكيف أنّ الخزانات المحفورة في الجدران امتلأت بأنواع المنسوجات كلّها اللازمة للحياة، مثل: مناديل المائدة، والمناشف بالإضافة إلى القدور النحاسيّة، والزهريّات التي رأيتِ مثلها في أدرنة.

أثناء النهار تظلّ المُلاءات والدُّثُر الخاصّة بأفراد الأسرة في هذه الخزانات أيضًا، فيوّفر ذلك مساحة واسعة جيّدة التهوية تشبه الأريكة على الأرضيّات؛ لتمارس الأسرة كلّ أنشطة حياتها الاجتماعيّة، مثل: استقبال الضيوف، وتناول الطعام، وملاعبة الأطفال، وتأدية الصلاة، والقيام بالأشغال اليدويّة، تمامًا كما يحدث في المنازل القرويّة حتى يومنا هذا.

كان الأثـاث أهـمّ ما اسـترعى انتباهكِ، وحـاز إعجابكِ فـي المنازل التركيّـة؛ وهـي آرائـك تقليديّـة منخفضـة منضودة بطـول جـدار النافذة، بالإضافة إلى تجويفات الجدران الناتئة من الأدوار العليا:

> ''كلّ الغرف مفروشـة بسـجاجيد فارسيّة ترتفـع مقدار قدمين فـي أحـد أطـراف الغرفة فيما يُعـرف بالأريكة، وهـي مغطّاة بنوع أثمن من السـجاجيد، ويحيطها مِصطَبَّـة مرتفعة مقدار نصف قدم مغطّـاة بالحريـر الثميـن... ويتـراصّ حـول ذلـك كلّـه صفّان من الوسـائد المسـتندة إلى الجـدار، الصـفّ الأول للوسـائد الكبيرة والثاني للصغيرة، وهنا تتجلّى عظمة الأتراك وأبّهتهم... توفّر هذه المجالـس الراحـة والرغد حتـى ظننت أنني لـن أتحمّل الجلوس على مقاعد ما حييت''.

من بين متـع الحياة السهلة الرائعة في تركيا أن تجلس القرفصاء على المِصطبَّة المنخفضة متكئًا على أريكة بين وسائد ملوّنة، وحولك أصدقاؤك يثرثرون، ويحتسون الشاي، أو تجلس في تجويف النافذة لتشاهد المارّة.

رغـم أنّ تلك القصور العثمانيّـة المرمّمة تثير الإعجاب حقًّا، إلا أنني أفضّـل في تركيـا المنازل العاديّـة المتواضعة التي حظيتُ بشـرف النزول ضيفة عليها؛ تعدّ المنازل التركيّة موئلًا للسـكينة، ومركزًا للسعادة الأسريّة وعمـادًا للمجتمـع كلّه، وتتّسـم بأنّها دائمًا مليئة بالضـوء والهواء والراحة والـودّ، قـد تكون مكتظة بأثاث عصر البـاروك المترف المفضّل لدى أبناء المدينـة المعاصرين، وقد تكون مؤثّثة بمصاطـب وأرائك عاديّة منخفضة مغطّـاة بالكِليـم، أيًّا كان ذوق الأثـاث، فإنّ العامل المشـترك بين المنازل التركيّـة الحديثـة والتقليديّـة هو السـجاجيد المذهلة؛ إذ يبـدو أنّ الأتراك يتمسّـكون بشـدة بأصولهم البدويّة، وسـتظل تلك السـجاجيد -سواءٌ آليّة الصنـع أم يدويّـة- أروع دليـل على ذلـك، فضلًا عن الأزهـار في أرجاء

المنـزل كلّـه، سـتجد طاقـة ورد صناعيّـة علـى مائـدة جانبيّـة أو زهـورًا في أوعية على النافذة أو في المدخل بصفائح زيت الزيتون أو زهورًا مرسومة علـى السـتائر والسـجاجيد والصـور وأباريـق الشـاي أو زهـورًا منحوتة فـي أقواس القباب التي أشـرتِ إليها يا سـيدة ماري؛ في المنـازل التركيّة ترمـز الأزهـار إلى الحيـاة والخير، وهِبَـاتُ الله المتمثّلة فـي زهرة مبهجة الألوان عطرة الرائحة نبتت بفضل الأمطار الهاطلة من السـماء، وتفتحت كأنها الأسرة التركيّة الضاربة بجذورها في تربة المنازل التركيّة المباركة.

الملحوظـة الأخـرى أنّ المنـازل كلّهـا بـدءًا مـن القصـور المترفـة إلـى الأكـواخ القرويّة تَشِـعّ نظافة، تجديـن المنازل التركيّـة نظيفة طاهرة علـى عكس الطرقات الموحلة والفوضى العامّة بالخارج؛ معك كلّ الحقّ -يا سيدة ماري- في قولك: ''إنّها الحقيقة؛ لا يهتمون ألبتة بتجميل خارج منازلهـم...'' أندهـش دائمًـا؛ فبالرغـم من سـذاجة المباني مـن الخارج، وقـذارة الشـارع المواجـه لهـا وصخبـه وعنفه، فـإنّ مجرد الدخـول إلى أيّ منزل تركيّ يغمرك إحسـاس بالسـكينة في مكان يَشِـعّ نظافة ونظامًا؛ لا يدخـل أحـد منزلًا تركيًّا دون أن يخلـع نعليـه أولًا، كي لا تدنّس قذارة الشـارع حرمـة المنزل ونظافتـه؛ لاحظت ذلك أنتِ أيضًا يا سـيدة ماري: ''يُحافـظ علـى نظافـة منـازل السـيّدات النبيلات فـي تركيا بالقدر نفسـه في المنازل الهولنديّة''.

ثمّـة منـزلان زرتُهمـا فـي تركيـا ولـم يفارقـا مخيّلتـي، وصفـت لـكِ مـن قبل شـعور أن يسـتقبلك أهل منزل تركـيّ ويتبنوك؛ فـي كلّ مرة أدخل فيها منزلًا تركيًّا -مهما قصرت الزيارة- تشـعرني الأسـرة أنها تبّنتني بطريقـة أو بأخرى، وهـذا ما حدث لي في قرية يوروك قرب سـافرانبولو؛ قريـة سـاحرة ومعرض حـيّ للمنـازل العثمانيّة الخشـبيّة الرائعـة الراجعة

إلى القرن الثامن عشر الميلاديّ، قضيت فترة بعد الظهر أكسر قشر البندق في الساحة الخارجيّة لأحد المنازل الضخمة بصحبة ربّ البيت، بعدها دُعينا للدخول وتناول الشاي، كان هذا المنزل العثمانيّ التقليديّ الضخم مصمّمًا ليسع أربع عوائل كبيرة، قد تغير طابعه ومال للحداثة؛ إذ ظهرت فيه دورات مياه إفرنجيّة، وانتصبت الثلّاجة شامخة في منتصف ساحة الجلوس، كانت العجوز والدة ربّ البيت تراقب كلّ ما يحدث من موقعها في جلسة تجويف النافذة؛ إذ جلست هناك لتستمتع بالنسيم البارد وتتأمّل جمال الريف المحيط وتتابع الحوار الدائر بيننا؛ قبيل الغروب خرجت مع حفيدتها إلى المرعى القريب لتعيد الأبقار إلى المنزل حيث مبيتها في ساحة الدار فيما يُعرف باسم ''الحياة''، والحياة: عبارة عن ساحة ممهّدة في الطبقة الأرضيّة يدخلها الهواء بفضل التعريشات الخشبيّة، بدا لي بوصفي قادمة من الغرب الأوسط أنّ الاحتفاظ بالماشية وسِلال البندق المقشور بالقرب من قلب المنزل والنوم بالأعلى أمر طبَعيّ مألوف.

أمّا المنزل الثاني، فكان يتألّف من غرفة واحدة، لحارس دير الشيخ تورَسَان خارج قيصري، شُيّد المنزل لجماعة هذا الشيخ العظيم التي عاشت في تلك المنطقة خلال القرن الثالث عشر، ودير الدرويش: منزل صوفيّ على قمة جبل رائع تأتيه الرياح من كل مكان، ويطلّ على سهل ترابيّ شاسع اجتاحه ذات يوم جنود تانكريد للوصول إلى الأرض المقدسة -فلسطين- خلال الحملة الصليبيّة الأولى عام ١٠٩٧م، ربّما امتزج جمال الريف، وهدوء العزلة، وعبق التاريخ، وذكرى الدرويش، لتضفي كلها على تلك البقعة جوًّا فريدًا من الروحانيّة.

عقب زيارة دير الدراويش دعاني الحارس لشرب الشاي في منزله، وبينما انهمكت زوجته في تحضير الشاي، تفحّصت المنزل ذا الغرفة

الواحـدة؛ كانـت غرفـة كبيرة جـدًّا مزيّنـة بسـجادة فيروزيّة بلـون البلاط السـلجوقيّ، جدرانهـا مطليّة بالجبص الأبيض تسـتند إليها وسـائد كِلِيم، لـم تكـن هناك أيّة صور علـى الجدران، أو مذياع أو تلفـاز مدوٍّ، أو قطـع أثاث متناثرة، لا شيء سوى موقد التدفئة المستدير القابـع في وسط الغرفة.

سـاد صمت مذهـل حتى إنني كدت أسـمـع أصداء ذكـرى صيحات الجنـود الصليّبييـن القادمـة مـن السـهل بالأسـفل فـي صـوت الريـاح التي تعصف بالأشجار، وصوت قعقعة دروعهم في زقزقة الطيور، وصدى قـرع الطبـول فـي طنين النحـل الخافت في الخلايـا القريبة، لـم أجد ثقبًا واحـدًا فـي السـجادة أو بقعة جافـة تلطّخها أو تلطّخ الجـدران، كان أهـمّ ما في الغرفة الأشخاص الجالسين فيها وأحاديثهم.

لا شـكّ أنّنـي أول أجنبـيّ يطـأ تلـك الغرفـة؛ فقـد عُوملـت بجـلال ومهابة كالسـلطان السـلجوقيّ المنتصر كِلتش أرسلان؛ دخلت ربّة المنزل وفـي يدها صينيّة عليها الشـاي والفاكهة الصابحة، ثـمّ انحنت برقّة ووقار لتضعها على الأرض أمامنا، وابتسمت لي في خجل قبل أن تصبّ الشاي بالرقيّ الفطريّ نفسـه لأيّ سـيدة حسـنة التربية، نشـأت في قصر ثورسبي هـول؛ وهكـذا يمكنـك أن تدركـي يا سـيدة مـاري، كيف يصبـح المنزل التركيّ من غرفة واحدة في مستوى جمال قصر من مئتين وخمس وسبعين غرفة أو في مستوى قصر "الشريف التركيّ"، وكيف تتجلّى عظمة الأتراك الحقيقيّة في منازلهم.

صديقتكم

قدرية برانج

وجبة عشاء على أريكة، في مطعم ''باندیلي'' بإسطنبول

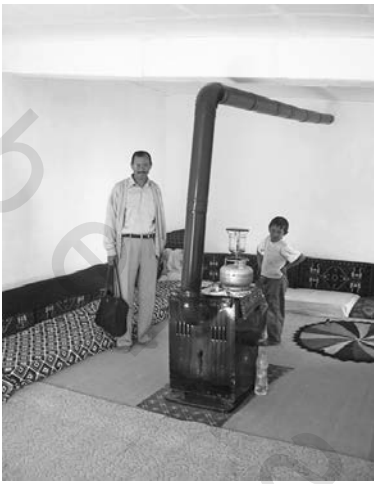

منزل حارس زاوية الشيخ تورَسَان

منزل عثمانيّ من الداخل في سافرانبولو

وسيلة الاتصال قبل ظهور هواتف الجيب

منزل خشبيّ قديم، في أوسكودار

منزل عثمانيّ من الداخل في سافرانبولو

منزل فريد من نوعه في بشيكتاش

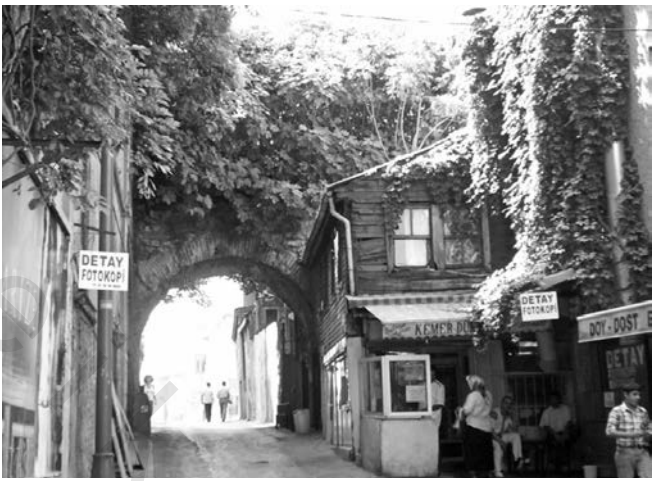

حيّ السليمانيّة في إسطنبول

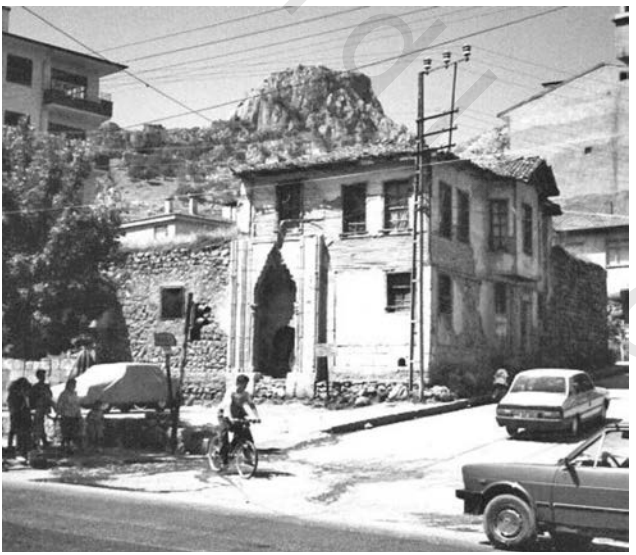

منزل فوق قبر سلجوقيّ في توقات

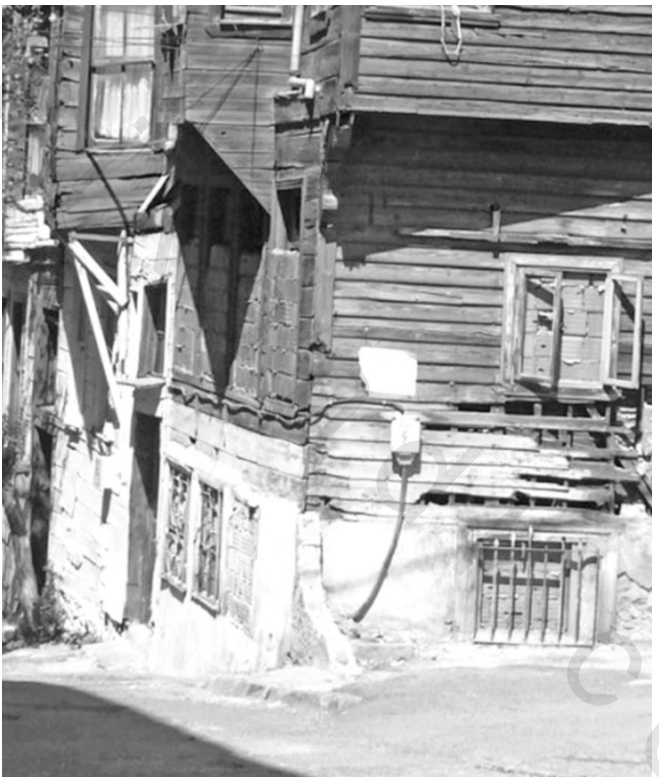

منازل خشبيّة قديمة في أوسكودار

الرسالة التاسعة عشرة

رؤية ثاقبة

عزيزتي السيدة ماري،

يبدو أن الأحداث المثيرة المهمّة تحدث دائمًا في تركيا بغض النظر عن العصر، ولعلّك لم تشعري كم أنت محظوظة لأنك عشتِ في تركيا في واحد من أشهر عصورها؛ فهذه الحقبة سُميت باسم تلك الزهرة الزاهية ذات الأوراق الخنجريّة النامية طبيعيًّا في غابات تركيا، والرمز غير الرسميّ للبلاد: إنّها زهرة التيوليب!

يعدّ عهد لاله (التيوليب) إبّان حكم السلطان أحمد الثالث أحد أهمّ عصور الإبداع الفنيّ على مدار تاريخ الإمبراطوريّة العثمانية؛ لعلّ هذا العصر لم يبلغ المستوى الرفيع لعصور أخرى انتشرت فيها المصانع الفنيّة العظيمة، رعاها بلاط سلاطين، مثل: سليمان القانوني، وسليم الثاني، ومراد الثالث، لكن لا داعي لأن ننسى أنّ قلّة من العصور ذات التراث الفنيّ العالميّ يمكن موازنتها بتلك السنوات الذهبيّة؛ إذ تمثّلت أهمّيّة عصر السلطان أحمد في إشراقه أكثر من اكتشافاته الثقافيّة الجديدة؛ إذ كان "عهد لاله" عهد المرح.

عقب ما يربو عن أربعة قرون من الحرب والنصر والهزيمة، قرَّر العثمانيّون فجأة أن يستريحوا ويستمتعوا قليلًا بوقتهم، وهكذا كان عهد لاله في عصر السلطان أحمد الثالث وقت السلام والمتعة المفرطة والإبداع الأدبيّ؛ بدأ هذا العهد في شهر رحيلكِ عن تركيا يا سيدة ماري، عقب توقيع معاهدة بساروفجة في يوليو عام ١٧١٨م، التي وضعت حدًّا للحرب مع النمسا، وقد أمضى زوجك قبلُ عمرًا يتفاوض لإنهائها لكن دون جدوى!

انتشرت زهرة التيوليب انتشارًا واسعًا أثناء فترة حكم السلطان البالغة اثني عشر عامًا، فصارت هذه الزهرة المقبّعة رمزًا لمتعة الفنون الإبداعيّة، وتحوّلت فكرة الحياة الرغيدة السعيدة إلى نوع من أنواع الفنون؛ فانتشرت احتفالات موسيقيّة، واستعراضات ضخمة في حلبات السباق، وحفلات راقصة، ونُزَه خَلَويّة، وحدائق ممتعة، ورِحْلات في البوسفور السعيد؛ لم تُزرع زهور التيوليب في حدائق المدينة كلّها فحسب، بل نبضت بالحياة في أعمال التطريز والخزف والمنمنمات.

علاوة على انتشار زهور التيوليب في الحدائق والأعمال الفنيّة، فقد خلق "عهد لاله" وجهةً وأبعادًا جديدة للمجتمع العثمانيّ؛ فتوثّقت علاقات تركيا بأوربّا خلال تلك الفترة، وازدهر العلم والاستكشافات الفكريّة بعد إنشاء المكتبات، والبدء في الترجمة، ووصول أول آلة طابعة لطباعة الكتب باللغة التركية.

تمتع إبراهيم باشا -صهر السلطان أحمد الثالث ورئيس وزرائه- بنفوذ واسع في الإمبراطوريّة، إذ أرسل بعثة سِفاريّة ثقافيّة إلى فرنسا لمراقبة أنظمة الحضارة والفنّ والتعليم والهندسة والتقنية؛ كان من نتائجها انتشار حركة تبادل تجاريّ واسعة بين أوربّا والإمبراطوريّة العثمانيّة، شملت

الأزياء والخزف والساعات، بالإضافة إلى استيراد الأفكار الجديدة، كما يحدث الآن في تركيا.

اهتمّ السلطان أحمد الثالث أيضًا بالبناء والتشييد؛ فأهدى المدينة فوّارة رائعة أمام مدخل قصر طوب قابي عام ١٧٢٨م؛ ومن المؤسف رحيلك قبل بنائها يا سيدة ماري، أتذكركِ كلّما مررت من أمامها، وشيّد السلطان أيضًا فوّارة مذهلة على رصيف ميناء أوسكودار، واستغل إبراهيم باشا -المُعيّن رئيسًا للوزراء في الشهر التالي لرحيلك- نفوذه لبناء فوّارتين في مسجدي شهزادا باشي وأورتاكوي؛ ولكن وا أسفاه شُيّدت كلّها عقب رحيلك، غير أنك شهدت طفرة بناء القصور الخشبيّة على ضفاف البوسفور، بدأت في تلك الفترة وعُرفت باسم ''يالي''؛ كتبتِ في رسالة إلى القس كونتي: ''لا شيء أجمل من القناة، والأتراك على دراية تامّة بمواطن جمالها؛ إذ يشيّدون استراحاتهم على ضفافها... فتتراصّ واحدة تلو الأخرى في مئات القصور الرائعة''، وفور رحيلك عن تركيا عام ١٧٢١م شيّد السلطان أحمد الثالث قصره الشهير ''سعد أباد'' -أي موطن السعادة- وسط مروج كاغيتهانه قريبًا من أيوب، وحُوّل مجرى النهر ليصبّ في المجاري الرخاميّة التي استعارتها البعثة الثقافيّة في فرنسا من رسوم قصر فرساي.

انعكست روح العصر في اللوحات الشهيرة لفنان البلاط ''لوني''، المصوّرة لاحتفالات ختان أبناء السلطان أحمد، وفي أشعار الشاعر نديم: ''دعونا نحتفل، دعونا نرقص ونلعب جميعًا، فقد بدأ عصر لاله!'' لكن وا أسفاه جاءت ثورة شعبيّة لتُنهي عصر عدم المبالاة والانغماس في اللذات والإفراط في الحفلات رغم ندرة الخبز والقوت، وأُطيح بالسلطان أحمد الثالث، وانتهى ''عهد لاله'' على حين غرة عام ١٧٣٠م.

رغم أنّك لم تشهدي ذروة أيّام ''عهد لاله''، فلا بدّ أنّك أدركت بالملاحظة المباشرة مقدار المتعة والمرح الذي تتضمّنه حياة الأتراك فطريًّا؛ فأنا أؤكّد لك أنّ الأتراك لم ''يستمتعوا ويرقصوا ويلعبوا'' في أيّامك فقط، بل إنّهم يفعلون ذلك كلّ يوم وبالطُّرق الممكنة كلّها؛ أعتقد أنّ الأتراك يعيشون لأربعة أشياء: الأسرة، الأصدقاء، الطعام، الطبيعة الجميلة، على اختلاف ترتيبها أو طريقة اجتماعها؛ أتقنوا مهارة الاستمتاع بوقتهم لأقصى درجة، بل كانت لديهم كلمات تعبر عن السعادة في المهرجانات الرسميّة الشعبية؛ بالرغم من كل المشكلات والصعاب في حياتهم اليوميّة وافتتانهم بالمآسي، فإنهم يتمكنون من الحفاظ على وجهة نظر تتسم بالسعادة الدائمة وارتفاع المعنويّات؛ إنّها ثقافة تنتصر فيها النظرة الإيجابيّة على المعاناة والسلبيّة.

من الصعب ألّا تستمتعي بوقتك وسط الأتراك، سواءٌ كنتم تحتسون الشاي أم تستمتعون بشواء شرائح اللحم أم تتضاحكون أم تشمّون الأزهار أم تنصتون إلى عازف ساز أم ترقصون في ملهى على شاطئ البحر أم تحضرون حفل زفاف قرويّ، كما أنّك لا تكفين عن الابتسام والضحك مع شخص تركيّ، وتحظين بمتعة خالصة، وكما تقولين في رسالتك إلى القس كونتي:

> ''كما ترى يا سيّدي، فإنّ هؤلاء الأشخاص ليسوا جهلاء كما نصوّرهم؛ فطبيعتهم مختلفة عن طبيعتنا، قد تكون أفضل؛ أكاد أعتقد أنّ رؤيتهم للحياة صحيحة؛ فبينما يقضون حياتهم بين الموسيقى، والحدائق، والطعام الفاخر، نعذّب أنفسنا، ونشغل عقولنا بمخطّطات السياسة أو بدراسة عِلم لا يمكننا إتقانه، ولو أتقناه فلن نتمكّن من إقناع الآخرين... يمكنك أن تسخر منّي عندما أعلن أنّ الشخص لأن يكون سيّدًا تركيًّا ثريًّا بجهله كلّه خير له من أن يكون السيد إسحق نيوتن بعلمه كلّه''.

هـذه الرؤية الصحيحـة للحياة تبدأ من مهامّ الحيـاة اليوميّة الاعتياديّة التي ترقى بطريقة ما لترقى درجةً أعلى من الرتابة، سواءٌ كانت لفتة كريمة أم كلمـة أم إيمـاءة عذبة؛ فليس ثمّة جانب من جوانب الحياة رتيب مملّ، بل كلّ شيء قابل للتحسين.

تزخـر الحياة في الشـارع والأسـواق بألوان من السـعادة والمفاجآت في كلّ لحظة، ومن شـأنها جميعًا أن تثير حواسّـك، مثل: العرض اللافت للمـوادّ الغذائيّـة فـي الأسـواق؛ إذ يتحـول تاجـر الخضـراوات العـاديّ إلى متخصّص في الفنّ المرئيّ يراعي أشكال بضاعته وألوانها أثناء ترتيبها، ويختتم العرض بحركة مذهلة؛ يقطـع ثمرة ناضجة كثيرة العصارة ويضعها علـى قمّة هـرم الفاكهة المشـيّد بعنايـة؛ ويولي تجار الجواهـر لبضاعتهم اهتمامًـا لا يقـلّ عن هـذا، فيعلقـون صفوفًا متتاليـة من الأسـاور الذهبيّة مختلفـة الدرجـات، لتتألّـق فـي الأضـواء اللامعـة كأزهار دوّار الشـمس الراقصة تحت أشـعة شـمس الأناضـول، يظهر الاهتمام نفسـه في عرض السلـع في المتاجر المؤقّتة والصغيرة المقامة في الأسواق أو في الشوارع، بغض النظر عن مدى أهميّة السلعة؛ فيصبح ترتيب المفكّات أشبه بلوحة متفجّرة بالأشـكال والألوان للرسّـام جاكسـون بولاك، وتتحوّل البضائـع الغريبـة المتنوّعـة إلى عـروض جانبيّـة كالمقدَّمة في مسـرح الحيوانات، وتشـمل هـذه البضائـع القبّعـات، والكُفـوف (القُفّـازات)، والمـراوح، ومقاشـر الخضراوات، وملابس الشِّـعار، والقَدّاحات، والبطاقات البريديّة القديمـة بصور الزهور، والأقفـال، وطلاء الأظافر، والعطور غير الأصلية، والمقالي زهريّة اللون، وأباريق الشاي، وقطـع الصابون الصفراء والزهراء، والأحذية المقلّدة لمشـاهير المصممين، والمَحافظ، والمِقشّات ومنافض الأتربة، وكلّها مرتّبة بدقّة وعناية في اسـتعراض صاخب للألوان، ووسـط هـذا كلّـه لا يسـعنا أن ننسـى الصبيان الصغـار والمُعْدِمين بائعـي عبوّات

المناديل والجوارب واللفائف المفردة بمهارة وإتقان، فهم أفضل من بائع في متجر باريسيّ متعدد الأقسام.

تتجسّد الأفعال الخارقة في تلك اللفتات الرقيقة الصادرة عن ماسح الأحذية؛ إذ يُخرج بخِفَّة كساحر متمرّس قطعةَ نسيج بيضاء، ويضعها على جوربك حتى لا يلطّخه الملمِّع؛ وتتجلّى أيضًا في مجموعة المناشف الملّونة المنشورة خارج متاجر الحلّاقين، ترفرف في الهواء كالأعلام المرفرفة على السفن، وتتجلى في عناية الأتراك بتغليف السلع بالورق أو الخيط مهما كانت زهيدة السعر، بدءًا من المنتجات النسائيّة وصولًا إلى حفّاضات الأطفال، لضمان قدر من الخصوصيّة في مواجهة أعين المتطفلين في الشارع، وتتجسّد في عطر الليمون العذب يُرشّ على يديك عندما تدخلين مكتبًا أو تغادرين مطعمًا.

في عالم الأعمال يتصرف الأتراك بدماثة؛ فتصبح متعة الشراء العاديّة مغامرة مثيرة، ووسيلة للتعرف إلى أصدقاء جدد وفرصة للتفاعل مع الآخرين والتعلم منهم، عندما تبدأ مفاوضات الشراء تظهر أكواب الشاي، معلِنةً بدء علاقة جديدة إلى جانب التجارة.

الأتراك لا يوصدون المتاجر، وإذا أراد صاحب المتجر أن يخرج لشراء الطعام، يضع كرسيًّا في المدخل إشارة إلى خروجه، ولا يجرؤ أحد على عبور العتبة حتى يُزَاح الكرسيّ، ورغم أنّ الموسيقى صاخبة في كلِّ مكان من المتاجر، وقد تكون مزعجة أحيانًا، فإنّها وسيلة للحيوية والتفاؤل في الشارع.

لا تختلف الحياة في الفندق كثيرًا، فلا يضيع أحد فرصة لتقديم المساعدة أو لإبداء الاهتمام الشديد، ومن أمثلة اللمسات الرقيقة المنتشرة في كلّ مكان: الانحناء لك كما لو كنت سفيرًا في الأمم المتّحدة،

وفتح الأبواب لك بابتسامة عريضة وغمزة عين، وشرائح الجزر أعلى شرائح جبن الفيتا كأوجه صغيرة باسمة تقدم لك تحية الصباح، والأزهار البلاستيكيّة المثبّتة في طيّة الصدر لبرنس الحمام تشعرك أنّها مهداة من معجب مجهول.

من مظاهر الذوق العالي في شوارع تركيا فنّ إبراز المشاهد؛ إذ يحرص الأتراك على اختيار مواقع منازلهم ومساجدهم وآثارهم بدقّة شديدة، ويتمتعون بمهارة فطريّة في اختيار أفضل الأماكن لوضع آثارهم من منظور استراتيجيّ دراميّ؛ ففي مقصورة مسجدي مراد الأول وبايزيد ''الصاعقة'' أعلى جبال بورصة تعزف الريح المداعبة للأشجار أنشودة خالدة تحكي النهاية المأساويّة لهذين السلطانين، ولا يمكننا نسيان المنازل العثمانيّة المتراصّة أعلى التلّ في سافرانبولو التي تشبه قطع الشطرنج المصفوفة بتناسب لتحافظ على منظر جيرانها.

أعتقد أنّ تناول الطعام في الخارج من أمتع مباهج الحياة لدى الأتراك؛ فقد يأكلون في ساحة مطعم فاخر على السطح، أو في حديقة شاي في المتنزّه وسط المدينة، أو في نزهة عارضة إلى جوار فوّارة أو جدول منساب، أو يتناولون وجبة عشاء في الهواء الطَّلْق في مدخَل منزل، أو يأكلون ثمرة خو

خ فـي ظلّ دوحة على جانب الطريـق؛ إذ يعرفون أنَّ الهواء النقيّ من أفضل المقبِّلات.

ترعرعـت على حبّ تناول الطعام في الخارج أيضًا؛ إذ اعتاد والدي أن ينظّـم نُزَهًـا أثنـاء تسـاقط الثلـوج، ووجبات إفطـار فـي المتنزّهات، ورحـلات قصيـرة إلـى حقـول الطماطـم المثمـرة مـع أخـذ الملاَّحة، واحتفـالات عائليّـة فـي غابـات الوديـان؛ لهـذا يرتبـط تنـاول الطعـام فـي الخارج في مخيّلتي بالتلقائيّة والسـعادة والأخوّة، وعندما اكتشـفت هـذا الشـعب المسـتمتع بتنـاول الطعـام فـي الهـواء الطلـق، شـعرت على الفور أنّني في وطني.

يعشق الأتراك النُّزَه الصيفيّة في البساتين، والحدائق، والمتنزّهات الوطنيّة، والمروج المرتفعة، وفي ظلال الأشجار، وفي أيّة بقعة تجسّد جمال الطبيعة، وقـد تكون وجباتهـم خفيفة وسـريعة كالفواكه الصابحة أو العسـل والخبز أو وجبـات متقنة من اللحم المشـويّ، ومن عاداتهـم الممتعة تناول الطعام صابحًا، وهي عادة منتشرة في الكثير من المطاعم والاستراحات على جانب الطريق، إذ يتم إحضار شـوّاية قابلة للحمل إلى مائدتك لتكون مسـؤولًا عن شيّ اللحم أو السمك وتناوله، وبقدر حبّ الأتراك لتناول الطعام في الخارج، فإنهم يكرهون المقاهي على الطُّرُق؛ لأنّها تترك شوارع المدينة متّسخة جدًّا.

تحدّثـتِ يا سـيدة ماري، في رسـالة مـن أدرنة إلى أليكسـاندر بوب، عن حبّ الأتراك للحدائق المليئة بأشـجار السـرو الباسقة تعلوها أعشاش طيور القَماريّ:

> ''الأرض كلّهـا مغطّـاة بالحدائـق، وبمحاذاة ضفـاف الأنهار تصطفّ أشجار الفاكهة يجلس تحتها الأتراك كلّ مساء للاستمتاع بوقتهـم، ولا يتمشـون تحتهـا؛ فهـذا ليـس مـن وسـائل الأتـراك

للاستمتاع، بل يختارون بقعة خضراء وارفة الظلال، وتبسط فيها سجادة ليجلس الجميع عليها يحتسون القهوة...''.

وليس ثمّة مكان أفضل للاستمتاع بما أشرت إليه من ''موسيقى، وحدائق، وطعام فاخر من المروج العالية، أي: مرتفعات الجبال الصيفيّة، يعدّها الأتراك مزارات وطنيّة حقيقيّة؛ فالمراعي المرتفعة جنّة على الأرض في العقل التركيّ الفطريّ؛ فهو يميل لتصميم السجاجيد لتماثل ألوانها الكثيرة أزهار المروج المزركشة.

عادة نقل المواشي من مرعى إلى آخر تجري في دماء السلالة التركمانيّة التي سكنت آسيا الوسطى وجاءت إلى الأناضول بداية من القرن الحادي عشر، واعتمد بقاؤها على السعي الدائم للعثور على مراعٍ جديدة للماعز والغنم حسب الموسم، صحيح أنّ الغالبيّة العظمى من الأتراك لم تعد تعيش وفقًا لهذا الأسلوب البدائيّ، لكنّه ما زال يسري في دمائها وأرواحها؛ فمع بداية فصل الربيع ترنو قلوب الأتراك إلى جمال تلك المراعي الجبليّة البهيجة، ويتوجهون إلى التلال للاسترخاء والاستمتاع بالاندماج في الطبيعة؛ لهذا تصبح الجداول المتدفقة، والضَّباب الأبيض في فترة ما بعد الظهيرة، والغنم، أهمّ أبطال القصص الشعبيّة الغنائيّة؛ يركض الأطفال بحريّة على العشب ويتسلقون الأشجار والصخور، وتجتمع العوائل مساء في الأكواخ الصغيرة ملاجئ الصيف، ولا تضاهي نضارة أطعمتهم سوى نقاء الهواء في تلك الأيّام الدافئة والليالي الباردة؛ فيأكلون الزبد، والجبن، والحليب، والخبز، واللبن الخثير؛ سواءٌ كانت المروج العالية في منطقة البحر الأسود أم في جبال طوروس أم كاتشكار أم أسفل جبل أرجيز، المهمّ أن يشعر المرء بالحريّة، وأن يشارك أسرته الطعام، وأن يحيا في تناغم مع الطبيعة والفصول المختلفة، وأن يستمتع

بحسّ المغامرة، وفوق كلّ شيء أن يتحرّر من قيود الزمن؛ ورغم أنّكِ لم تنعمي بزيارة المروج العالية فقد ثملتِ من حلاوة المناخ التركيّ والطبيعة:

"الجو رائع جدًّا؛ أجلس الآن -في الرابع من يناير/كانون الثاني- والنوافذ مفتوحة، أستمتع بأشعّة الشمس الدافئة، وغرفتي مزيّنة بأزهار القرنفل، والورد، والنرجس المقتطف من حديقتي".

سيدة ماري، كم سيكون من الرائع الجلوس معك على سجادة في حديقةٍ قُبَالة الماء في أحد مئات القصور الرائعة أو في المروج العالية، للانخراط في محادثة لبِقة مع شخص نحترمه، ولإلقاء أبيات علّمك إياها معلّمك أحمد، ولتناول بعض ثمار الخوخ الصابحة، وشرب الشاي معًا؛ يمكننا أن نضحك ونحظى بسعادة مفعمة بالحيويّة كما يفعل الأتراك في كلّ لحظة من حياتهم، يمكننا أن نترك سير إسحاق نيوتن ونتجنّب قوانين الحركة قليلًا كي نحتفل، ونرقص، ونلعب كالندماء، يمكننا أن نصبح صديقتين بمفهوم الصداقة العذب الرقيق الرّائق الذي عشناه في تلك اللحظات في تركيا؛ هذا هو الرقيّ الحقيقيّ، والرؤية الثاقبة للحياة.

صديقتكم

قدرية برانج

مجموعة مقاعد لتناول العشاء تحت الأشجار في بيشهير

مطافئ الحريق مستعدّة في أدرنة

(اخدم نفسك بنفسك) في فتحية

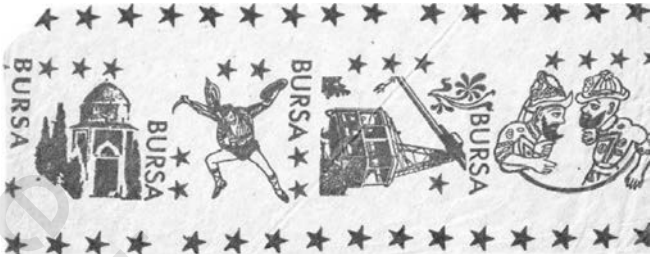

ورق التغليف في إحدى الصيدليات في بورصة

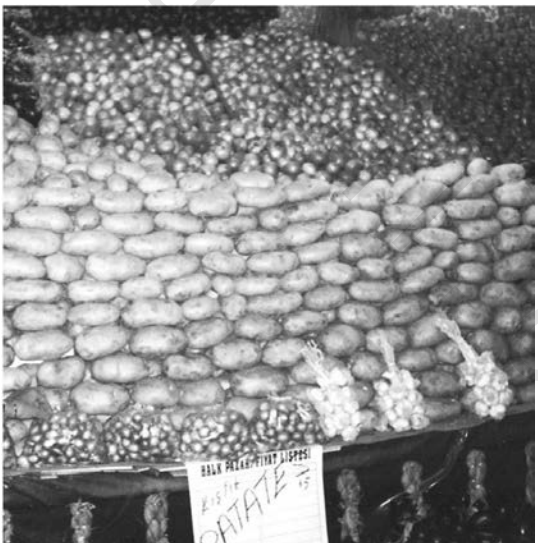

بطاطس في سوق بشيكتاش

باذنجان معروض للبيـع، سوق الخاتونية في قونيا

لوحة حيّة لثمار الطماطم، والفلفل، وزجاجات المياه المعدنيّة في تاتفان

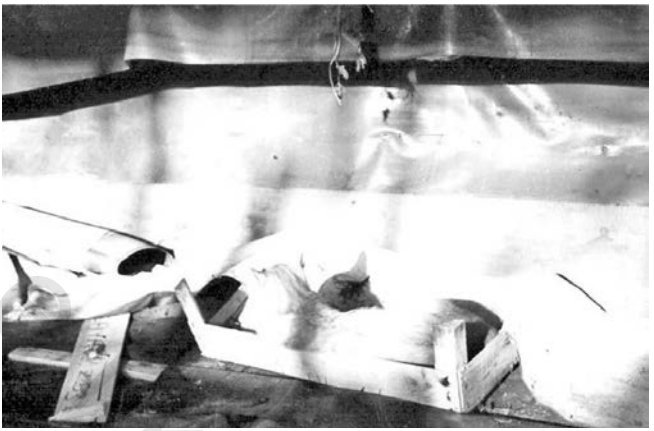

متعة القطّة ''غفوة في السوق''

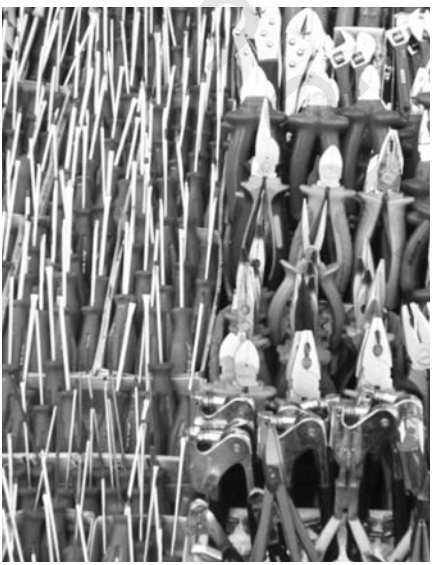

أدوات معروضة للبيع في إسطنبول

أدوات معروضة للبيع في إسطنبول

بضائع ملوّنة في كاديرجا

قرع صيفيّ للبيع، سوق الخاتونية في قونيا

في أفشين

مشهد من الشارع في قونيا

متعة القطّة، سوق الصحفيين في إسطنبول

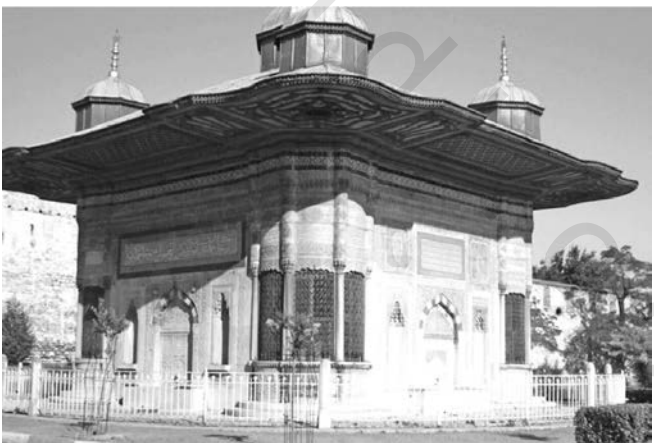

فوّارة السلطان أحمد الثالث عام ١٧٢٨م

obeikandl.com

الرسالة العشرون

كنت جائعة

عزيزتي السّيدة ماري،

لا أختلف معك إلا في مسألة واحدة، وهي تقديرك للثقافة التركيّة؛ ففي الرسالة التي تتحدّثين فيها عن عشائك مع زوجة رئيس الوزراء، تقولين منزعجة:

> ”لقد ضيّفَتْني بكلّ لطف وكِياسة، ثمّ حان موعد تناول العشاء، فقُدّمت أطباق كثيرة واحدًا تلو الآخر... وأنا خبيرة جيّدة في أطعمتهم؛ إذ أقمت ثلاثة أسابيع في منزل سيّد تركيّ في بلغراد، اعتاد أن يقدّم لنا وجبات عشاء رائعة من إعداد طهاته؛ أمتعتني هذه الوجبات جدًّا خلال الأسبوع الأوّل، لكنّني بدأت أملّ منها وتمنّيت أن يُعِدّ طاهينا طبقًا أو طبقين من أطعمتنا...“.

هلّا تمنحيني هذه الأطباق الكثيرة يا سيّدة ماري، إذا لم ترغبي في تناولها! أختلف عنك في هذا؛ فأنا لا أَمَلّ أبدًا أصناف الأطعمة المتنوّعة المتوفّرة في تركيا؛ أُقرّ أنّي سمعت آخرين يبدون ملاحظتك نفسها

obeikandl.com

عـن الرتابـة في الأطعمـة؛ في زيارة لي إلى أنطاليا التقيت سـيّدة راقية من أتلانتا، كانت حسـناء من الجنوب تَشِـعّ جمالاً؛ تحدّثت بلهجة الجنوب الثقيلة ثقل الشـاي المحليّ، وقالت بحسـرة: ''طماطم، طماطم، طماطم! لقد سـئمت منهـا! يتناولونهـا على الإفطـار، والغداء، والعشـاء، والطعام المعـدّ هنـا كلّه فيه طماطم! أتوق للعـودة إلى الوطن؛ لأتناول وجبة رائعة مـن اللحـم بالمرق، وجريـش القمح!'' لم أحاول إقناعهـا برأيي؛ إذ أظنّ بصـدق أنّ النعيـم هـو المكان الذي يسـتطيع فيـه المرء تنـاول الطماطم من الصباح إلى المساء؛ لذا لم أعلّق على قولها.

ورغم أنّ الأطعمة التركيّة لا تخلو من الطماطم، إلا أنّني أجد المطبخ التركيّ متنوّعًا، وهذه من أمتـع المزايا في تركيا؛ لا أحاول في رسالتي هذه تغيير رأيك في الطعام التركيّ، ولا أريد أن أسهب في الحديث بلا توقف عن ملذّات المائدة التركيّة، أو أن أصف مذاق كلّ طبق على حدة؛ فسأترك هـذه المهمّـة للكُتّاب هُواة الحديث عن الطعام؛ إنّما أريد أن أطلعك على بعـض اللحظات السـعيدة التي مـررت بها وأنا أسـتمتع بأطباق أعجبتني خلال رِحْلاتي.

يحمل الطعام التركيّ كثيرًا من صفات الأتراك أنفسـهم؛ فهو صريح، سهل، مباشر، شهيّ، غنيّ، مثلما تسهل قراءة الوجوه التركيّة، ينطبق الشيء نفسـه على طعامهم؛ فليس فيه شـيء خفيّ أو سريّ، ولا يحتاج إلى خبرة فائقة أو صلصات كثيفة معقّدة، بل هو طعام واضح، مباشر، تعرفين تمامًا طريقـة تحضيره ومكوّناتـه، غير أنّ وضوحه لا يعني بالضـرورة أنّه مملّ؛ فبعـض هـذه الأطباق من ألذّ ما تذوّقت في حياتي، وأنا أَعُدّ نفسـي ذوّاقة فـي أشـهر المطابخ العالميّـة، ألّا وهو المطبـخ الفرنسـيّ؛ فيمكنني عقد هذه الموازنات.

لا بدّ أن تكوني من محبّي لحم الضأن، بل من المكثرين منه، لتستمتعي بالمطبخ التركيّ؛ فهو شائع هنا، لأنّ لحم الخنزير محرَّم، ولحم البقر غير منتشر، أمّا إن كنت غير ذلك، فستنتظرك في كلّ مكان وجبات من دجاج المزارع الغضّ، والسمك الصابح من أحد البحار الثلاثة المحيطة بتركيا: البحر الأسود، وبحر إيجة، والبحر الأبيض المتوسط.

رغم أنّ تركيا بلد يكثر فيه تناول اللحم، إلّا أنّه جنّة للنباتيّين، وهنا تكمن أهمّ مزايا المائدة التركيّة؛ فلا أعرف بلدًا آخر يراعي تلك الفئة؛ لن تجدي مثيلًا لأنواع الفاكهة والخضر المتوفّرة في تركيا في أيّ مكان آخر، ولو فرنسا؛ إنّ طريقة تحمير الخضراوات في زيت الزيتون، وتقديمها طبقًا مُشَهّيًا يشعر النباتيّ أنّه في الجنّة؛ يُقال على سبيل الدعابة: إنّ الرجل التركيّ قد يطلّق زوجته إذا أعدّت له الباذنجان بالطريقة نفسها مرّتين خلال شهر واحد؛ إشارةً إلى غزارة الطرق والأفكار الخاصّة بتحضير الخضراوات في المطبخ التركيّ!

أجد كثيرًا ممّا أشتهيه هنا؛ فأنا شخصيًّا أستمتع بالأطعمة السهلة غير المعقّدة، فطبق متواضع من أرز بالحِمّص، مع شيء من اللبن الخثير الدَّسِم بنكهة محبّبة في أكثر الأماكن تواضعًا مثل مواقف الشاحنات، من أفضل الأطباق لديّ في العالم، أمَّا الرَّائب -شراب اللبن الخثير المفضّل لديهم جميعًا- فتناوله مع أغلب الوجبات يذكّرني بإبريق لبن خثير مُخَوَّض، شربته وأنا طفلة على مائدة عشائنا في الغرب الأوسط، ما هو طعام الثاني المفضّل في تركيا؟ إنّها ثمرة خوخ مثاليّة مزغَّبَة كرويّة، مثل: كرة البيسبول؛ لن تعرفي مذاق الخوخ الطبيعيّ الحقيقيّ حتى تتذوّقي ثمرة خوخ في تركيا؛ فهي ناضجة كلّ النضج، مكتنزة، تداعب حلاوتها لسانك، وتتدفّق عصارتها؛ لتغمر مسامّ التذوق كلّها في فيك.

عـلاوة على الطعام بالـغ السـهولة، يسـتطيع المـرء أن يجد لمحات مـن الأطباق المعقّدة، كانت تُعـدّ في مطابخ قصر طوب قابي الراقية رقيّ السـلطان المعـدّة لـه؛ يوثّق مؤرّخـو الأطعمـة المرموقون هـذه الأطباق، وطرق إعدادها كي لا يغمرها النسـيان، ولا شـكّ أنّ الطرق الأقلّ تعقيدًا لإعداد هذه الأطباق المتسـرّبة إلى المطبخ التركيّ الحاليّ تمنح مسـتوى المتعة نفسـه لعشـرة ملايين أسـرة في جمهوريّة تركيا، مثلما منحتها لكلّ بلاط سلطانيّ خلال إقامتكِ في تركيا العثمانيّة.

كلّ شـيء صابـح فـي هـذا البلـد، ثمـرةً كان أم طَبيخًـا؛ إذ يمكنـك أن تشـعري بـدفء الشـجر فـي ثمار المشـمش، وبقوالب طـوب المخبز في قشـرة رغيف الخبز؛ وطعام الأتراك متنوّع تنوّع الريف وسـكّانه، يضمّ مجموعة واسـعة من الأطباق المحَليّة المنتشـرة المعدّة بزهوّ، وهو طعام ذو نكهـة قويّـة، بدءًا من العسـل حادّ الطعم، والجبن بالثـوم نفّاذ الرائحة، والبَسْطِرْمَة قويّة النكهة، وصولًا إلى الرّائب الحامض اللاذع.

أخبرتك من قبل عن الطيّبات على مائدة الإفطار التركيّ، لكنّ الأتراك يتألّقون غالبًا في موائد العشاء، وأقوى شاهد على ذلك مقبّلاتهم التقليديّة، وكثيـر مـن الأطبـاق الصغيرة في بدايـة الوجبـات؛ فهذه الأطبـاق بمنزلة صورة فوتوغرافيّة صغيرة للبلاد بأسرها، أطعمة شهيّة متنوّعة تغريك دومًا لتناول المزيد.

يعجبنـي اشـتراك الأتـراك في تنـاول مقبلاتهم؛ إذ يأكلـون من الطبق نفسـه، يُوضـع كثير من أطبـاق المقبّلات علـى المائدة، قد تصـل أحيانًا إلـى اثني عشـر صنفًا، يتشـاركون فيهـا جميعها؛ الأمر الذي يغرِس حسًّـا فطريًّا تربويًّا بأهميّة روح الجماعة.

الأتـراك يحبّـون الطعـام، ويأكلـون بشـهيّة كبيـرة، ويضعـون كثيـرًا من الملح في طعامهم؛ بعضهم قد يضع تلقائيًّا عشر رشّات من الملّاحة لأيّ طبـق أمامـه دون تـذوّق أو تـردّد، ويتمتـع الأتراك بحماسـة وطنيّة، لا تتبـدّى لـدى رؤية عَلَمهـم الخفّاق ذي الهلال فحسـب، بل تظهر أيضًا علـى المائـدة؛ كان لي صديـق تركيّ لم يسـافر خارج البلاد قـطّ، وكنت مقيمـة فـي فرنسـا وقتئـذٍ، فأمضيـت وقتًـا طويلًا أصِـف له جمال فرنسـا ومباهجهـا، وأغلـب هـذه المباهـج يتجلّـى طبعًا فـي المائدة الفرنسـيّة، وكنـت أحلَـم بالوجبـة التي سـأعدّها لـه إذا حضـر لزيارتي فـي باريس، وفي أحد الأيّام بدأت أصف له مدى سعادتي عندما سأطهو له أوّل وجباته الفرنسـيّة، ثـمّ مضيت أتحـدّث عن الأصناف فـي قائمة الطعام: ”سـأعدّ لـك صنفًـا خاصًّا... سـنبدأ بسـوفليهْ بالجبن، تليه شـرائح السـلمون مـع السبانخ، والطبق الرئيس شرائح الدجاج مـع الصلصة، تليها سلطة الخسّ الصابح، وطبق الجبن المشـكّل، والحلو شـوكولاتة، هـذه هي القائمة!“ حقًّا كاد لعابي يسـيل لمجرّد التفكير في القائمة وسـعادتي وأنا أعدّها له، وهي من أهمّ علامات الحبّ التي أعرفها؛ بدت على وجهه نظرة انزعاج، وصـاح: ”دعيـك من هذا! لا أريد هذه الأطعمـة! أريد أطعمة تركيّة فقط! فهـي الأفضل، والأطبـاق الأخرى كلّها لا ترقى إلى مسـتواها!“؛ تعلمت مـن هذا الـدرس المؤلم أنّ بعـض الأتراك لا يحدوهـم الفضول للتعرف إلى أطعمة الثقافات الأخرى، ويعدّون مائدتهم مقدّسـة؛ فرجل لا يرغب في أن أطهو له وجبة فرنسيّة، لم يكن بالطبع جديرًا بأن أحرص على حبّه؛ فيبـدو أنّ الدجـاج بالكريمـة لا يمكنه التفوّق على الكبـاب؛ فانتهت قصّة حبّ بسبب الطعام التركيّ.

يُقـال: إنّ أعظـم مـوارد تركيا الطبيعيّـة هي قدرتها على كفاية شـعبها، وعدم حاجتها للاعتماد على أيّة أغذية مستوردة، وهذا الاحتياطيّ قد يتضح

فـي نهايـة المطاف أنّه أهمّ من البتروكيماويّـات أو الفحم، فضلًا عن ذلك، فالطعام يمنح الأتراك فرصة جيّدة للزهو بما يشتهرون به من حسن الضيافة.

وصفـتِ -يا سـيّدة مـاري- طقوس العشـاء خـلال زيارتك للسـيّدة حفصة: ''قدَّمت لي وجبة عشـاء من خمسـين طبقًا مـن اللحوم، وُضعت علـى الطاولـة واحدًا تلو الآخر تبعًا لتقاليدهم...''؛ ولا تزال هذه الأطباق تقدّم حتى اليوم واحدًا تلو الآخر، لا في شـكل حصص مثلما يحدث في أوربّا، بل من خلال طقوس طويلة تمهيدًا للصنف التالي.

حينمـا نزلـتُ ضيفة على عائلة حدّثتك عنها في رسـالة سـابقة، أعتقد أنّنـي عُوملـت معاملة لا تقلّ فخامة عمّا تلقّيته من معاملة في منزل السـيّدة حفصة؛ ففي جوّ الحديقة المنعش تحت التعريشـة قُدّم لي ''فطائر اللحم'' المعـدّة منزليًّـا، مـع الخبز الصابـح، تلته سـلطة شـرائح الطماطم الصابحة والقثّـاء، بالإضافـة إلـى فاصوليا بيضـاء بالصلصة، ثم ظهـر الطبق الرئيس مـن شـرائح لحم الضـأن الدقيقة، في سَـمَاكة الورق، مشـويّة مـع الفلفل الأخضر إلى جانب الأرز، مـع مشروب صودا البرتقال، تلا ذلك طبق الحلو من كعك الشـوكولاتة المرشـوش بالبندق والفسـتق الجريش، لكنّ الوجبة لم تنتهِ بعد؛ فقد رُفِعَت المائدة وأُعدّ الشاي؛ وإذا بإناء ضخم لإعداد الشاي بالإضافة إلى عشرة أطباق فيها مختلف أنواع المكسّرات، والفواكه المجفّفة، والمشـمش، ثـم زارنا بعض الجيران، وسـرعان ما ظهـرت صوانٍ ضخمة مـن الفواكـه الصابحـة، وقُدّم لـكلّ ضيف طبق فيـه قطـع شـمّام، وبِطيخ، وعنـب، وكمثـرى، وتفاحـة! ربّما هذا ليس كالخمسـين طبقًـا التي قدمتها لك السيّدة حفصة، لكنّني أؤكّد لك أن حسن الضيافة لم ينقص عمّا وصفته.

كثيـرًا ما تكون الخدمة فـي المطاعم بالغة الرقيّ، تتضمّن اسـتعراضًا مبهـرًا لخفّـة يد النـادل خلال تبديل الأطبـاق وأدوات المائـدة مـع تتابـع

تقديم الأصناف، وإذا نهضتِ لحاجة أثناء الوجبة، فستعودين دائمًا لتجدي منديلك مطويًّا، والكراسيّ منسّقة، والمائدة خالية من فتات الطعام، وكأسك مترعة.

لدى الأتراك عادة تتطلّب الاعتياد عليها، لكنّها نابعة من الاهتمام الأصيل؛ إذ لا يليق في الثقافة التركيّة ترك الطبق فارغًا أمام الضيف؛ لذا سوف تلاحظين كثيرًا رفع طبقك من أمامك وأنت على وشك تناول اللقمة الأخيرة، وشوكتك أو ملعقتك في الهواء، وكثيرًا ما تقدّم لك الأطباق مرتّبة على غير ما طلبت، مع استبدال بعض الأطباق، وتقديم أطباق لم تطلبيها، كما حدث معي من قبل؛ فالنادل يعرف دومًا الأفضل لك بغض النظر عما طلبت! عندما يفتح النادل زجاجة مشروبات غازيّة، يعيد السدادة على الفور إلى مكانها، أو يسد عنق الزجاجة بمنديل مائدة ملفوف على شكل مروحة رائعة، ومهما حاولتِ إقناعهم، سيؤكدون لك أن ترك الزجاجة مفتوحة لا يليق.

تزعم فرنسا أنّ لديها ستّ مئة نوع من الجبن، وهذا صحيح إلى حدّ ما، لكنّ الأتراك أيضًا يمكنهم أن يفتخروا بما لديهم من تشكيلة واسعة من أنواع الكفتة والكباب؛ فهم مهرة بالفطرة في الشيّ بالسفافيد، والسَّلق، والشيّ على الفحم؛ فثمّة ما يزيد على مئتين وواحد وتسعين نوعًا مختلفًا مذهلًا من أطباق اللحوم، مثل: اللحوم المشويّة، أو المسلوقة، أو المقليّة، أو المطهيّة على مهل أو المحمّرة أو النيّئة، ويحمل كثير من أنواع الكباب والكفتة اسم المنطقة التي يعدّ فيها، وهذا دليل آخر على تفاخر الأتراك بالأماكن: (إزمير، أكتشابات، إيناجول، تَكيرداغ، هاربوت، توقات، أضنة، بَيْتي)، بينما تشير أسماء لأنواع أخرى إلى طريقة طهوها، أو مخترعيها (الصلصة، كُبَيبة مشويّة على الفحم، مدوّرة ''لحم الشاورمة''، ساطور

من تراقيا، كباب إسكندر، بيتي، تشاغ من إرضروم، فرن التندور، كباب علي نازك من وان)، وتحمل أسماء أخرى بعض المكوّنات الخاصّة (سردين، أنشوفة)، أو تحمل أسماء تتضمّن تشبيهات، مثل: ''الصغيرة''، و''الأفخاذ المكتنزة''، و''رؤوس الطيور''، وفي الختام لا بدّ أن أستوضح مسألة لغويّة تتعلّق بالطعام؛ إذا أراد أحدهم أن يقول: ''أنا جائع''، فلماذا تُصاغ الجملة دائمًا بالزمن الماضي؟

كلّما شعرت بالقليل من التعب، أو الحزن، أو الكآبة، أو اعتلال المزاج في موطني بمدينة نيويورك، أدركت تمامًا ما يجب عليّ فعله؛ فأحضر لحم الحمَل، وباذنجانة، وبصلة، وبعض حبّات الطماطم، ثمّ أشرع في العمل؛ فآثار الكباب العلاجيّة مذهلة؛ حينما أقشّر ثمرة الباذنجان الأرجوانيّة، أفكّر في الشمس الحارّة فوق سهول الأناضول تلفح قشرتها، وحينما أقلي قطع اللحم وشرائح البصل في الزُّبْد حتى تنبعث منها رائحة شهيّة، ترتفع معنوياتي مع تصاعد البخار، وهكذا يا سيدة ماري، حينما أطهو وجبة تركيّة، أفكّر في وفرة الأطعمة المميّزة للمائدة التركيّة، لا سيّما وفرة الحبّ المنتشر حولها؛ لم أشعر، ولا أشعر، ولن أشعر أبدًا بالجوع في تركيا.

صديقتكم

قدرية برانج

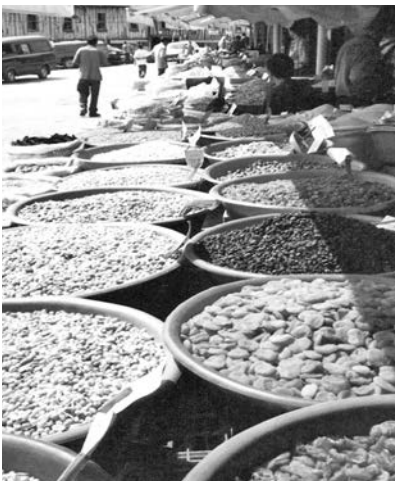

فواكه مجفّفة، سوق ساماتيا في أنقرة

مخبز في كارس

بِطيخ ديار بكر

قالب نقش الخبز في إسطنبول

وجبة الخبز باللحم المشهورة بها قونيا

الخضراوات الشتويّة في سوق أورتاكوي

أهمّ مطعم يعدّ كباب إسكندر المشهورة به بورصة

استراحة لتناول الإفطار في ينيكوي

الخضراوات الشتويّة في سوق أورتاكوي

فواكه محفوظة في مطعم الحاجّ عبد الله في إسطنبول

أضلاع لحم الحمَل في قرية كافاك

سوق السمك في أنقرة

تاجر المنتجات الجافة في تشوروم

تجّار البِطّيخ والشمَّام في سوق بشيكتاش

obeikandl.com

سوق منتجات الملكة خاتون في قونيا

صالون حلاقة باتشا في أفشين

بائـع معجنات متجوّل في أمين أنو

obeikandl.com

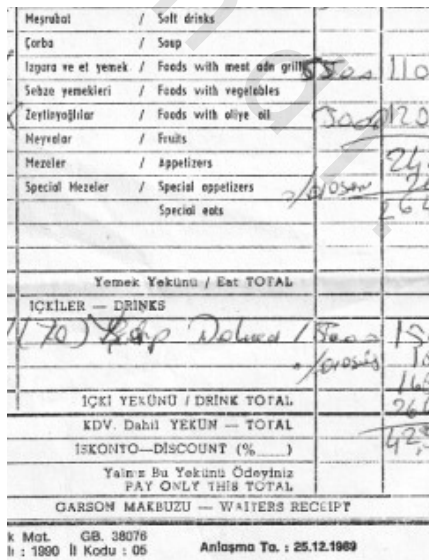

فاتورة من نادي مدينة أماسيا

الرسالة الحادية والعشرون

البصمة التركيّة

عزيزتي السّيدة ماري،

تؤكّدين دائمًا في رسائلك على ذوق الأتراك بالغ الرقيّ، على الرغم من اختلافه عن ذوقنا؛ إنّه ذوق يتغلغل في جوانب حياتهم كلّها، ويتمحور حول تلك العناصر الأربعة الشهيرة: الأسرة، الأصدقاء، الطعام، البيئة الجميلة، ويؤثّر فينا جميعًا بلا استثناء، وأنت قطعًا محقّة في قولك: ''هؤلاء الأشخاص ليسوا جهلاء كما نصوّرهم؛ فطبيعتهم مختلفة عن طبيعتنا...'' لكنّ ثمّة أمرًا واحدًا صغيرًا في الثقافة التركيّة يبدو أنّه تسلّل من هذا الرقيّ الفائق، أطلق عليه اسم ''البصمة التركيّة''.

ثمّة ''بصمة'' أخرى شهيرة أعرفها جيدًا، تسمّى ''البصمة الفرنسيّة''؛ تشير إلى طابع الأناقة والتميز اللذين يضفيهما الشعب الفرنسيّ على منتجاته وإبداعاته كلّها من طراز الملابس إلى المطبخ، وأصبحت تعني أيضًا الأسلوب المتميّز الرفيع في لعب الرجبي، لكنّ مفهوم ''البصمة'' في تركيا شيء مختلف تمامًا؛ فالبصمة التركيّة في رأيي: طريقة تركيّة خاصّة لإضفاء نوع من القصور الطفيف -عن قصد أو غير

قصد- على ما يفعله الأتراك كلّه؛ فدائمًا ما تجدين شيئًا ناقصًا، أو يعوزه التناسب، أو خاطئًا تمامًا أحيانًا، وليس هذا بالأمر الجلل، فكلّ شيء يسير على ما يرام، لكنّ هناك دائمًا خللًا طفيفًا، أو نقصًا، أو نقطة ضعف، أو غرابة، أو التباسًا؛ الأمر أشبه ببيت شعر مكسور أو كلمة غريبة مفاجئة تلفت نظرك، وتجعلك تفكرين على نحو مختلف فيما يحاول الشاعر أن يقوله؛ يخبرني أغلب الأتراك أنّ هذا الأمر ليس متعمّدًا، لكنّه قد يكون كذلك بدرجة ما؛ فالأتراك يصابون بالانزعاج حينما يبدو كلّ شيء شديد المثاليّة، والحياة ليست مثاليّة، وكذلك ينبغي أن يكون ما حولنا كلّه؛ الكمال لله وحده؛ فيجب ألّا نغفُل عن ذلك، ومن ثمّ علينا أن نظلّ متواضعين، وألّا ينتابنا الكبر؛ هكذا أفهم طريقة عمل البصمة التركيّة؛ فكأنها صلاة سهلة لتمجيد عظمة الخالق.

نشأت في ثقافة تسعى جاهدة لتحرّي المثاليّة فيما تفعله كلّه، سواءٌ في الرعاية الطبيّة، أو طراز الملابس، أو خدمة العملاء، أو إرسال أشخاص إلى القمر، أو إجراء عمليّات لأطفال الأنابيب؛ لهذا يسهل عليّ اكتشاف هذه البصمات التركيّة؛ فهي بارزة بروز مصابيح متوهّجة حينما تراها عين غربيّة دقيقة، لكنّني سرعان ما تعلّمت ألّا أطلق عليهم الأحكام، أو أزدريهم؛ لأنّ السبب لا يرجع إلى نقص في المهارة، أو الاهتمام، أو الدقّة في المنتج النهائيّ؛ فأيّة حضارة تستطيع أن تنجب مهندسًا معماريًّا مثل سِنان وغيره من أبرع الحرفيّين، يمكنها بلا شكّ أن تميّز بين الخطأ والصواب، غير أنّ المرء لا بدّ أن يظلّ متواضعًا، مخلصًا إنسانًا؛ فنحن جميعًا نرتكب الأخطاء، أليس كذلك؟ إذًا ها هي ذي الأخطاء تُرتكب كلّ يوم في كلّ شيء، ظاهرة للعيان كي تذكّرهم بذلك؛ هذه هي الحياة على كوكبنا، وحولنا، في منازلنا، في قلوبنا.

تتجلّى أكثر الأمثلة تقليديّة وقدمًا على البصمة التركيّة في السجاجيد؛ إذ يتعمّد النسّاجون ارتكاب أخطاء بالغة الصغر في عملهم؛ كحياكة

غـرزة من لـون مغاير، أو تعمّد تعرّج الحافـة، أو الإبقاء على كتلة صغيرة مـن العقـد الغريبـة، وهـذه تذكرة خفيفـة بأنّنا نعيـش في العالم الحسـيّ، لا العالم الروحانيّ المثاليّ للخيالات والأحلام.

تظهـر أوضـح البصمـات التركيّـة فـي الترجمـة الخاطئـة المضحكة كثيرًا، المنتشـرة في الإشـارات وقوائم الطعام، والكتب المدرسـيّة؛ فربّما يَفْـزَع المرء ويرفض تناول بعض ما تحويه قوائم الطعام بسـبب المكتوب فيهـا، علـى سـبيل المثال: سـأذكر لـكِ ترجمة السـطر الأول مـن أفضل كتـب تاريخ الفنّ التي قرأتها في حياتـي -لن أخبرك بعنوان الكتاب حتى لا أجـرح مشـاعر الكاتـب، أو المحـرّر-: ''إنّ حضـارة أسـلاف الأتراك جعلـت فـنّ العمارة متواصـلًا، مؤلمًا''؛ عبارة كهـذه تصرفك بالطبع عن قـراءة ثـلاثَ المئة والخمسـين صفحة الباقية، وبعد مرور عشـر سـنوات طويلة، مكلّفة من ترميم مسجد بايزيد باشا في مدينة أماسيا، ما زالت لوحة بيانات المسـجد المكتوبة باللغة الإنجليزيّة تعجّ بأخطاء فادحة؛ ما قولك فـي هذه العبارة في كتيّب السـيّاح التركيّ، الرسـميّ، الصادر عن حكومة مدينـة قهرمانمـاراش، تصف طيـب مـذاق مثلّجاتهم الشـهيرة بالكلمات التاليـة: ''السـحلب يجعـل الحليـب متماسـكًا، وعمليّة خفـق المثلّجات تجعلها صلبة''؛ هل يبدو هذا الوصف شهيًّا!

مـن المثير للسـخرية أن تظهر بعض أغرب الأخطاء في بعض أشـهر الأماكـن وأهمّهـا، من قصر طـوب قابي إلى فندق الهيلتـون، وعلى ضوء خبرتـي السـابقة فـي الترجمـة، اسـتأذنت ذات مرة أحد موظفي الشـؤون الثقافيّـة التركيّـة أن أقـدّم خدماتي بوصفي محـرّرة أو مراجعـة للكتيّبات والمطبوعـات الرسـميّة، وأخبرتـه أنّ الدولـة تنفق أمـوالًا طائلة لإصدار هـذه الدعايـة، المصمّمـة لجذب الأجانـب لزيارة تركيا؛ لذا سـيكون من الأفضـل أن تصـدر بلغـة إنجليزيّة صحيحـة راقية، فحملق إليّ مندهشًـا، وأجـاب قائـلًا: ''أنـت لا تفهميـن! نحـن الأتـراك لا نريـد للأشـياء

أن تكون مثاليّة! هذا ليس من شِيَمِنا!"؛ حاولت أن أوضّح له أنّ الجمهور الذي يستهدفه ربّما لا يتّفق معه بالضرورة في الرأي، لكنّني لاحظت أنّ حديثي أزْعَجَه، فلم أسهب في الكلام؛ بالفعل يبدو أنّ الأتراك لا يريدون أن تكون الأشياء مثاليّة؛ لأنّ هذا يتعبهم، ويزعجهم، تمامًا مثلما تسبّبت حماقتي في إزعاج ذلك الموظف.

يحمل عالَم العمارة أمثلة جليّة تعكس البصمة التركيّة في أوضح صورها؛ فطريقة التركيب للوحات مفاتيح الإضاءة في تركيا خير مثال على ذلك؛ إذ نادرًا ما تكون اللوحات رأسيّة تمامًا، بل دائمًا ما تجدها تتحرّك في مكانها بمقدار عشر درجات إلى اثنتين وعشرين درجة، ويمكن أيضًا رؤية البصمات التركيّة في طريقة تركيب البلاط المعوجّ، أو المقلوب أحيانًا -رأيت بلاطًا مزخرفًا بعناقيد عنب تتدلّى بالمقلوب-، وتظهر البصمات التركيّة في الشقوق الظاهرة بين عشيّة وضحاها في أرضيّة رخاميّة حديثة، أو في جدار مجصّص، وتظهر في شدة ميل الممرات المنحدرة المخصّصة للمعاقين، حتى إنّها قد تتسبب في موتهم، وفي أنظمة الأَساقيل المرعبة المستخدمة في مشاريع البناء أو الترميم، وفي صندوق طرد المرحاض المتعطّل حينما تريده أن يعمل، ثمّ يُصدر في منتصف الليل هديرًا صاخبًا من تلقاء نفسه، فيوقظك، ويغمر أرضيّة المنزل بالماء، ويفسد حذاءك.

يمكنك رؤية البصمة التركيّة في أرجل الطاولة مختلفة الأطوال دائمًا، وفي الرخام المقلّد للمحراب المطليّ بالأرجوانيّ، والأزرق السماويّ، والورديّ، في مسجد حاجي أوزبك في مدينة إزنك، أو في أنابيب الفلورسنت المبهرة المحيطة بمسجد إبليكجي في مدينة قونيا، فهي تشبه أضواء ممر مهبط الطائرات، وفي الحافلات الواجب تحرّكها في وقت محدّد، ولا يهتم أحد بمرور ساعتين دون أي إشارة تدلّ على أنّ الحافلة ستتحرك، وكلّ ما يفعلونه جميعًا هو طلب عدد لا نهائيّ من أدوار الشاي.

تظهـر كذلك في رحلات الخطوط الجويّة التركيّة؛ كانت في الماضي تُلغـى دون سـابق إنـذار، ودون أن ينزعـج أحـد؛ لأنّه لن يلحـق بالطائرة من محطة تالية إلى باريس.

تظهر تلك البصمة في القمصان القطنيّة تنكمش بعد غسلها أوّل مرة، فضـلًا عـن أنّ أصباغهـا تنطبـع على جسـمك، وتفوح مـن الجلد رائحة الحيوانـات؛ وفـي الأحذية البلاسـتيكيّة الرخيصة اليابسـة جـدًّا حتى إنها تتشـقّق بعـد ارتدائها مـرّة واحدة، وفـي الكلاب الهجينـة الجرباء تجوب المنطقـة الرائعـة المحيطة بقلعة سـيتا فـي قونيا، وفي القطّـة تدخل أرقى المطاعم، وتتمسّـح بأرجُل روّادها، وفي الدِّلاء البلاسـتيكيّة على السـلّم الضخـم تحـت أكبر ثريّا في العالم في قصـر دولما بهجة كي تتجمّـع فيها قطرات المطر المتسـاقطة من السـقف، وفي البقرة المتجوّلة حول مسـبح لأحد الفنادق ذات النجوم الخمسة كي تلوك النباتات المزروعة في أُصُص الزهور، دون أن يهتمّ أحد بإبعادها عن مقاعد روّاد المسبح.

عالـم السـياحة والفنـادق غنـيّ بالبصمـات التركيّـة، قد يكـون عاديًّا أن تـرى إحـدى البصمـات التركيّـة فـي الفنـادق الصغيـرة المتواضعـة فـي المناطـق الريفيّة، لكـنّ المفاجآت كثيرًا ما تكون مخبّأة في المنشـآت الفاخرة ذات النجوم الخمسة؛ ففي تلك الفنادق في الأناضول لا يتحدّث موظف الاستقبال أيّ لغة أجنبيّة، ولا يعرض التلفاز سوى قناة واحدة فقط، وتـرى البصمات التركيـة أيضًا في فندق مصاعده كلّهـا معطّلة في الوقت نفسـه، ولا يبـدو أنّ أحـدًا منزعج أو يشـتكي، وفي أجنحـة فندقيّة مزوّدة بمناشـف ومُـلاءات تركيّة فخمة مثقّبة، وحذارِ ثـمّ حذارِ من تلك الطيّات الخطرة في سـجّادة حجرة الطعام، فهي تعرقل شـخصًا واحدًا على الأقلّ يوميًّـا، وتظهر البصمـات التركيّة كذلك في رقم الحجـرة المكتوب يدويًّا الملصق بشـريطة لاصقة شـفّافة على مفتاح الباب، وفي المسمار الضخم المثبّت في الجدار لتعليق مجفّف الشـعر في غرفة الملابس بمنتجع أحد

الفنـادق الراقيـة، وفي شاشـة المصعد تعـرض الرقم ثلاثة عنـد الوصول إلى الطبقة الثانية، وفي مكالمات التنبيه في حجرتك عند الخامسة صباحًا، رغـم أنّك لم تطلـب إيقاظك، وفي أنصال السـكاكين المثلمـة وبرّادات الحجرات الحارّة، وفي شجرة عيد الميلاد البالية، الملتوية، المزيّنة بكرات ثلج اصطناعيّة في بهو الفندق شهر يوليو/تموز!

تنتشـر البصمـات التركيّـة بوفـرة في الشـوارع؛ تجدها في الأسـلاك الكهربيّـة المتدلّيّـة مـن بناية إلى أخرى، وتكاد تلامس رأسـك -سـجلّت محافظة كارس رقمًا قياسيًّا في هذا المشهد خاصّة-، وفي مَكِنات الصرّاف الآليّ المعلّقة عاليًا على الجدار، حتى إنّها تجعل شخصًا مثلي طوله ستّ أقدام مضطرًّا للوقوف على كرسـيّ -يُوضـع إلى جوار المكنات تفضّلًا-، وفي نخلة صناعيّة تتلألأ بأضواء النيون في مواقف سـيّارات المدينة أثناء العواصف الثلجيّة، وفي بساتين الزهور أمام المتاحف الوطنيّة في صفائح زيت الزيتون المعاد استخدامها.

تظهـر البصمـات التركيّة المفضّلة لديّ في الخرائـط المبتكرة توزّعها المكاتـب السـياحيّة الرسـميّة، مرسـومة يدويًّـا بطريقة محبّبـة، لكنّها غير واضحـة إلى درجة مزعجة، وغالبًا تكون معكوسـة تمامًـا؛ فتجعل تجربة اكتشافك للشوارع في المدينة أقرب إلى رحلة "أَلِيْس في بلاد العجائب"؛ ذات مـرة تلقّيـت إحدى هـذه الخرائط الشـاحبة في مكتب للسـياحة في بورصة؛ فتشـجّعت، وسألت الموظّف إذا كانت لديه خريطة أخرى أفضل حالًا كي أضعها في حقيبتي؛ لتساعدني في معرفة طريقي، فأشرق وجهه، واختفى بسـرعة في سعادة، ثمّ عاد بعد دقائق يترنّح بخريطة مساحة أبعاد إطارهـا سـبع أقـدام طولًا وخمـس أقدام عرضًـا، رفعها مـن على جدار مكتب المدير، ووضعها بمشقّة أمامي، وقال: "هل تفيدك هذه؟"

قـد تظهر البصمـة التركيّـة أيضًا في اللمسـات الرقيقة اللطيفـة يبديها الأتـراك، وفي الزهور الصناعيّة المرصّعة بقطـرات ندى راتنجيّة (صمغيّة) فـي زهريّـات علـى طـاولات المطاعـم كـي تبـدو كمائـدة السـلطان، وفي الملاعق والشوك الملفوفة بعناية في مناديل ورقيّة مربوطة بشريطة، وفي صور جبال الألب السويسـريّة المعلّقة في المطاعم وسط السهول المتربة، وفي ثمار البِطّيخ المنحوتة بَجَعًا رائعًا، وفي بلاط الحمّام المزخرف بورود زرقاء يزيّن الجزء الداخليّ من الجامع الكبير بمدينة سيرت.

قـد تكـون البصمـة التركيـة متفاوتـة ومذهلـة، مثـل: سـماع الأذان فـي الرابعة وتسـع دقائـق صباحًا بمدينة كارس؛ لتتسـلّل إلى نفسـي لذّة موسـيقيّة لا تـزال تعتريني حتـى الآن، أو مثل الأرصفـة الرخاميّة الفخمة علـى جانبي شـوارع مدينة أفيـون الريفيّة المتربة؛ وأخيـرًا تعلّمت أنّ هذه النقائص تمنح الأشياء والعالم من حولنا حياة نابضة، وصرت مثل الأتراك أشاركهم ولعهم بها؛ علّموني أن أكون أقلّ تدقيقًا، وتذمّرًا، ونقدًا، وحينما أرى بصمـة تركيّة غالبًا ما أبتسـم؛ لأنّها مضحكة جـدًّا أحيانًا، لكنّها دائمًا ما تثلج صدري؛ إذ أستشـعر يد الإنسـان وراءها، إنّه شخص تركيّ يعرف مكانه في النظام الكونيّ للأشياء؛ وهي تعلّمني ألّا أبالـغ في تقدير نفسي، أتعرفين لماذا؟ لأنّه لا أحد كامل؛ لا أحد سوى ربّنا العظيم.

صديقتكم

قدرية برانـج

مطعم في سيلفان

لافتة بجوار المسبح في فندق فخم

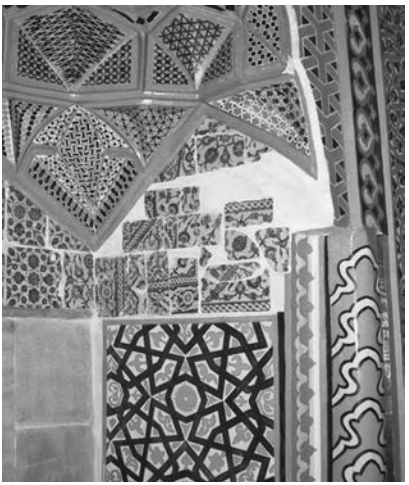

أعمال ترميم في قونيا

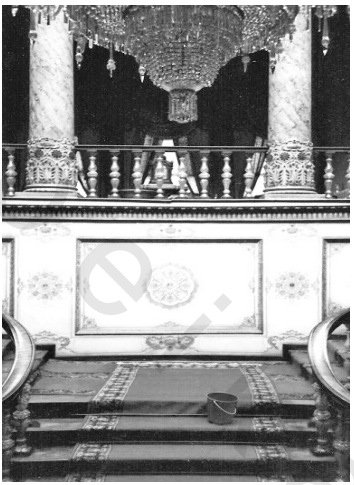

قصر دولما بهجة

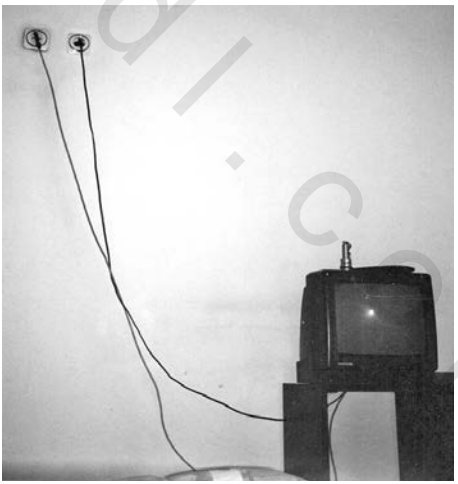

قاسطمونى

قاسطمونى

افسحوا الطريق

احتفالات عيد الميلاد في يوليو/تموز

ممرّ للمعاقين

obeikandl.com

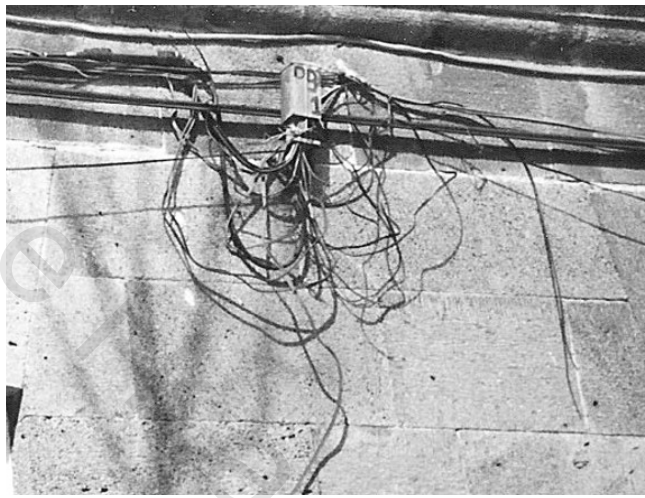

كارس

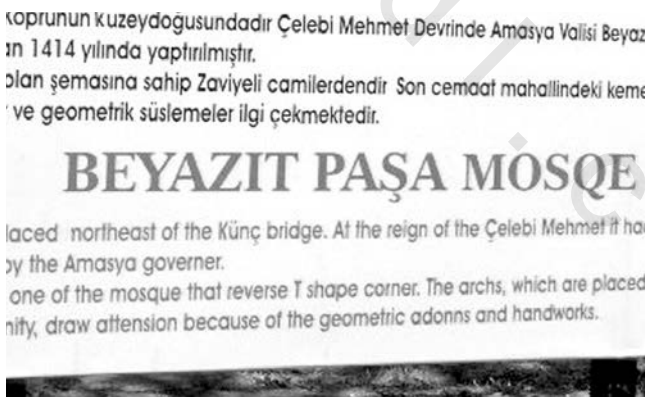

إضافات، وأعمال يدويّة

الرسالة الثانية والعشرون

سجادة من سبعين مليون عقدة

عزيزتي السّيدة ماري،

كم أود أن نخرج معًا في نزهة بعد الظهر، ونركب زورقًا في البوسفور! نستطيع أن نرسو في أيّ مكان على ضِفافه، ونبسط سجّادة تركيّة نجلس عليها، ونستمتع باحتساء الشاي وتناول المعجّنات والبِطّيخ، ونمتّع أعيننا بالمنظر الخلّاب، وعقولنا بحديث شائق؛ في الواقع لسنا بحاجة إلى زورق، أو إلى البوسفور كي نحظى بجلسة ممتعة؛ فأيّ مكان تبسطين فيه سجّادة تركية، يتحوّل إلى روضة صغيرة تفيض بهجة.

تخبريننا في رسائلك بتفاصيل كثيرة عن الحياة اليوميّة في مختلف الفترات، منها طراز الملابس، والأثاث، والجواهر، والأطعمة، والعادات، والرقص، والموسيقى؛ هذا الاهتمام بالتفاصيل جعلك أحد الروّاد لتأريخ الثقافة الحسيّة لحياة البلاط التركيّ في القرن الثامن عشر ولتدوينها؛ فإحساسك بالطراز رفيع جدًّا؛ تصفين سترات السلطان عند ذهابه إلى المسجد، والزيّ المزخرف لرئيسة حريم القصر، وزخارف الحواشي

فـي ملابس الحـرس، والفسـاتين كلّها لسـيّدات البـلاط اللائـي زرتِهنّ؛ بالطبـع لا يمكننـا أن نصفـك بأنّـك كنت عالمـة أجناس بشـريّة بالمعنى الحاليّ للكلمة، لكنّك ولا شكّ مهّدت الطريق لعلماء الأجناس بإدراكك أهميّـة أن تدوّنـي تفاصيـل الحياة كلّها مهمـا كانت صغيرة فـلا تمرّ دون ملاحظـة؛ فراقبت بعنايـة، وأصغيت، ودوّنت، وبفضـل رؤيتك للتفاصيل الدقيقة ألقيت لنا الضوء على صورة أوسع.

ذكـرتِ -يا سـيّدة ماري- ملاحظات عن فنّ العمـارة والفنون أقلّ ممّا ذكرت عن الأنماط والأساليب السائدة؛ وربّما لأنّني فنّانة، فهذه أوّل الأمور التي تلفت انتباهي، كلّما مشـيتُ في شـارع، أو دخلت حجرة، أو سافرت، لكنّـك حينمـا تتحدّثين بالتفصيـل عن الجوانـب الفنيّة، يكون نظـرك ثاقبًا كشـأنك دومًا، أمّا عشاؤك مـع السـيدة حفصة، فقد وصفت مناديل المائدة الشاشـيّة، الرقيقـة، المطرزة بزهور ذهبيّة: ''... شـعرت بالأسـف الشـديد عندما استخدمت هذه المناديل النفيسة، المشغولة كأروع ما أنتج هذا البلد من مناديل على الإطلاق''؛ ومضيت تصفين الأوعية الخزفيّة ذات الأغطية الذهبيّـة الصلبة، والسـكاكين الذهبيّـة ذات المقابـض المرصّعة بالألماس، وحوض الاستحمام الذهبيّ والمناشف المطرَّزة، تصفين في إحدى رسائلك الأخيرة القصور الخشبيّة المبنيّة على ضفاف البوسفور وزخارفها:

> ''أرصفة بيضاء، وأسـقف مذهّبة، وجدران مكسـوّة بالخزف اليابانيّ، وألواح الخشـب المصدّف المرصّعة بالزمرد على شـكل مسامير، وكلّ شيء مزخرف بقدر كبير من المرمر، وأطباق الخزف مـن الأنـواع كلّها، والجـصّ الملوّن، وقـدور الزهـور، وإطارات النوافذ من أرقى أنواع البلّور مزيّنة بأروع رسوم الفواكه والزهور''.

هناك رسالة من أكثر رسائلك حيويّة تركّز على فنّ العمارة أيضًا، تلك الرسـالة تصفيـن فيها زيارتك لجامـع السـليميّة في أدرنة، بنـاه المعماريّ

الشـهير سِـنان للسلطان سـليم الثاني عام ١٥٦٩م؛ كنت محقّة في قولك: ''إنّ هـذا المبنـى جديـر بالفعل بـكلّ ذرة اهتمـام يوليها له السـائحون''؛ إذ يُعدّ بحقّ تحفة سِنان الفنيّة، وقد اضطررتِ لارتداء زيّ تركيّ كي تتمكّني مـن الدخـول، ثمّ وصفـتِ الجامـع بتفاصيـل دقيقة تتفـوّق على أوصاف لاحقـة كتبهـا مؤرخو عمارة مُحدَثون؛ لم تغفُلـي عن مَعْلَم واحد في هذه الرسـالة الطويلـة، بدءًا من سـاحة الجامـع إلى القبـاب، والرواق بأعمدته الرخاميّة الزبرجديّة العتيقة، والارتفاع الشـديد بفضل نظام القبّة الواحدة، والأسـوار الرُّخاميّـة، والسـجاجيد الفارسـيّة، والمنبـر العظيـم المصنوع من الخشب المذهّب المنحوت، وبهو العبادة الخاص بالسلطان، والشموع البيضـاء، والمآذن الأربـع الشـاهقة، ودفعك الفضـول لصعودها! قد يتّفق معـك كثيـرون في العصر الحاضـر؛ فهذا أعرق بناء رأيتـه على الإطلاق، وقد أسـعدني إعجابك بزخرفته خاصّة، بدت لي الحوائط مطعّمة بأحجارٍ ألوانُهـا فـي منتهـى الحيويّة على هيئة زهـور صغيرة، لم أسـتطع تخمين الأحجار المسـتخدمة، لكنّني لما اقتربت وجدتها مكسـوّة بخزف يابانيّ، يُضفِـي تأثيرًا رائعًا، اندهشـت لظنّـك الطلاء الثخيـن المزجّج على بلاط إزنك أحجارًا، وبهرني أنك استطعت تمييز الأثر الآسيويّ فيها.

تصويرك لجامـع السليميّة والقصور الخشبيّة دقيق جدًّا، ومفعم بالحياة حتى جعلني أشـعر كأنّني أشـاهدها، وهو وصف أكثر إثارة من أي صورة فوتوغرافيّة، غير أنّ ما يدهشـني قلّة حديثك عن السـجاجيد؛ فهل السـبب أنّ السجاجيد التركيّة كانت مألوفة حتى إنّك لم تشعري بالحاجة لوصفها؟ فالسجاجيد الراجعة إلى القرن السادس عشر المبسوطة في القاعة الكبرى -تلك السـجاجيد العملاقة بحجم الغرفة كلّها المنسـوجة في مشغل بلاط السـلاطين سـليمان الأوّل، والثانـي، ومـراد الثالـث- كانت قد انتشـرت فـي إنجلتـرا منـذ وقت طويل لتزيّـن أرقى القصـور الريفيّة، ولا شـكّ أنّ بيـت عائلتـك ''ثورسـبي هـول'' ضـمّ واحـدة منها، رغـم أنّهـا مصنوعة

في المشاغل، إلّا أنّها رائعة، غير أنّني أفضّل السجاجيد الأصغر حجمًا، كالتي قد نأخذها معنا؛ لنجلس عليها في حفل شاي سنقيمه على ضفاف البوسفور؛ إنّها سجاجيد تغزلها امرأة نسّاجة تجلس وحدها أمام نَوْلها.

ينتج الأتراك بعضًا من أروع السجاجيد في العالم، ونادرًا ما يعود أحد زوّار تركيا من رحلته دون سجّادة معه في حقيبته، لكنّ السجادة للشخص التركيّ أكثر من بساط جميل يوضع على الأرضيّة؛ إنّها قطعة فنيّة.

حينما نتحدّث عن الفنّ في الغرب، تتبادر إلى أذهاننا سلال الفاكهة، والسيّدات العرايا، والمناظر الطبيعيّة المعلّقة على جدران المتاحف أو اللوحات المتهافت بعض الناس على اقتنائها بملايين الدولارات في سوق فنيّة محمومة، ويتبادر إلى أذهاننا جامِعو القطع الفنيّة رفيعو الشأن المتعجرفون، أو المثقّفون المتذوّقون للجمال، أو نجوم الفنّ، مثل: بيكاسو وماتيس، ويرتبط الفنّ في ذهن الغربيّ العاديّ بأنّه مدنيّ، دينيّ، تجريديّ، ثقافيّ، ذكوريّ، ينتمي للطبقة الراقية، يرتبط بوجه عام باللوحات الزيتيّة، لكنّ الفكرة مختلفة في تركيا، ومفهوم الفنّ لدى الأتراك يعني أيّ شيء يُصنع بمهارة عالية مع الاهتمام الشديد بالتفاصيل؛ لهذا فالمهارة التقنيّة والنظام لا يقلّان أهميّة عن الإلهام والحدْس.

الفنّ في تركيا مشاع؛ للشخص العاديّ، والقرويّ، والمدنيّ على حدٍّ سواء، والأتراك عمليّون، وفنونّهم عمليّة أيضًا؛ فيستخدمون العناصر المتوفّرة حولهم، مثل: الجوز من الغابات الشماليّة، والرخام من المحاجر القريبة في أفيون، والصوف المنسوج يدويًّا من الغنم الحيّة، وأصباغ الخضروات والأعشاب، والصلصال الجافّ، ولا مجال للترف في الأعمال الفنيّة التركيّة؛ فمقدار الانتفاع هو الفيصل؛ إذ لا بدّ أن يكون الغرض عمليًّا مفيدًا لا زينة فقط؛ فيصنعون قطعًا فنيّة أبدعها مجتهدون، يستخدمون الأدوات والإبر، ويجلسون أمام النيران والأنوال.

تشكل الحرف اليدويّة أساسَ الفنّ التركيّ، وتتضمّن فنّ الخطّ، وأشغال الصدف، وفنّ ترخيم الأوراق، والنسيج، وصناعة الجلد لعمل المعاطف والسُّروج، وتطريز الحوائف، وصنع اللُّبّاد، والحياكة، والتقطيب، والفخار، ومشغولات النحاس، وصناعة السلال، والنِّجارة.

يبني الأتراك بيوتًا من الخشب والصخر وألواح البلاط، وينسجون الملابس والمنسوجات المنزليّة، ويستخدمون حبيبات الخرز الزجاجيّ لزينتهم أو تزيين سروج دوابّهم، وينقشون الملاعق الخشبيّة؛ ليأكلوا بها أصناف اليخنة والحَساء الشهيّة؛ والعناصر الزخرفيّة عندهم مستمدّة إمّا من عالم الطبيعة -وأحبُّها إليهم الزهور والطيور- أو من الرموز الحسابيّة والفكريّة لعلم الهندسة.

يُكِنّ الأتراك مشاعر قويّة لبلادهم، وعوائلهم، ودينهم، وحِرَفهم، ويعتقدون أن البَراعة والمهارة عنصران رئيسان للفنّ، ويقدّرون الأهميّة الدينيّة والتاريخيّة للزخارف التي يستخدمونها، ويحاولون أيضًا إضفاء نوع من القداسة على فنّهم من خلال جعله أروع ما صنع بشر وأكمله؛ لأنّ المهارة تمجيد لله، ومن الملاحظ أنّهم يتّسمون بالجرأة والصراحة في عملهم؛ لذا تجد فنّهم أشبه بطعامهم: مباشر، يخلو من التفاهات، مستمدّ من تراثهم ودينهم وثقافاتهم الإقليميّة، وهو تراث بالغ الأهميّة حتى إنّهم يفخرون بإعادة تقديمه مرارًا وتَكرارًا؛ وهدف الفنان التركيّ في الواقع واضح جدًّا؛ إذ يريد صنع قطعة جميلة باستخدام أفضل مهاراته، قطعة تعكس حبّه لله ولعائلته، وتنفع الآخرين؛ الأمر بهذه السهولة.

لماذا اختار الأتراك السجاجيد، واختار الفرنسيّون الطعام والطِّراز، واختار الأمريكيّون الموسيقى، واختار الإيطاليّون السينما، واختار البريطانيّون الحدائق؛ ليعبروا من خلالها عن هويتهم الثقافيّة؟ لا أدري! لكنّ الفنّ تعبير عن الإنسان، ويظهر على نحو مختلف في كلّ ثقافة؛

إنّه تعبير عن الثقافة الحسيّة لعصره، وانعكاس لزمان بعينه، ومكان بعينه، وثقافة بعينها، ورؤية الفنّان المبتكر؛ يمكنك أن تكتشفي كثيرًا عن تركيا بالنظر إلى مصنوعات الأتراك، وفي اللحظات الحزينة التي أظنّ فيها أنّني لن أفهم أبدًا لغتهم المنطوقة، تكون لغة أعمالهم، لا سيّما السجاجيد، مفهومة تمامًا، وتجعلني أكثر قربًا منهم.

كم يعجبني فنّهم الجامع بين احترام التقاليد والسعي إلى التغيير والنموّ في الوقت نفسه؛ لطالما جعلتني الطريقة التركيّة السلسة في مزج القديم بالحديث في أمور الحياة اليوميّة أشعر بالراحة هناك؛ فالأطلال الرومانيّة جوار المدارس السلجوقيّة والأسوار البيزنطيّة والفوّارات العثمانيّة، والحدائق والأزهار تزدهر جانب الجدران الخرسانيّة، والطرق السريعة تزاحم الجسور والقنوات القديمة؛ مزيج يتناقض فيه ضجيج الشوارع مع سكون المنازل، وتقع فيه الأماكن التجاريّة والأضرحة جنبًا إلى جنب، والمجال واسع هنا لسماع الأصوات الفنيّة المختلفة كلّها واحترامها، تمامًا كما يحدث وقت الصلاة، فالجزء من الثانية الفارق بين بداية أذان وآخر، واختلاف طبقات أصوات المؤذنين تمتزج لتمنح العبارة الواحدة أصواتًا مختلفة؛ فيكون كصدى صيحات طيور النّورس المحلّقة في سماء ميناء أمين أنو؛ ينطبق هذا الاحترام للقديم والحديث على حِرَفهم؛ فهي تمثّل فنّ الأتراك؛ فكليّات الفنون الجميلة التي تعلّم النحت والرسم في الغرب لم تترك في الأغلب أثرًا يُذكر في تعبيرها الفنيّ.

الأتراك يقدّرون جدًّا من يعملون بالخشب، ويَجدلون السِّلال، وينسجون الصوف؛ فلا فرق بين الفنّ والحِرَف هنا؛ فالحِرَف كلّها فنون؛ ثقة الأتراك في رسالتهم الفنيّة -بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى- من أقوى عوامل جذب تركيا لي شخصيًّا بوصفي فنانّة حرفيّة.

احتدم الصراع في الغرب بين الفنون والحِرَف على مدار الثلاثين عامًا الماضية، ولم يبدأ في الخمود إلّا في الوقت الحاضر؛ كان ''الفنّ'' يُعرّف عادة بأنّه أيّ شيء يُبتكر للتأمل الجماليّ خصّيصَى، بينما اعتمد تعريف ''الحرفة'' على وظيفتها النفعيّة في المقام الأوّل، وظلّ علماء الفنّ ومؤرخوه يناقشون طويلًا هذا الفرق، حتى تمكنوا في النهاية من التوصل إلى قاعدة مشتركة مريحة، والمتاحف الفنيّة الكثيرة المنشأة في الغرب خلال العشرين عامًا الأخيرة والمخصّصة للفنون القديمة خير دليل على ذلك، لكن ما زالت هناك آثار للتمييز بين الاثنين، وبوصفي من فنّاني صناعة الزجاج، يجب أن أستخدم يديّ في التعبير بقوة وبراعة، وحينما أحدّق في قطعة مصنوعة بيدَي فنّان تركيّ، أستطيع أن أرى آثار يديه القويّتين أيضًا؛ ولعلّ هذا سبب انجذابي لتركيا؛ فهي أرض غنيّة بالفنّانين الحرفيّين البارعين المدركين أنّ التفوّق الفنيّ يكمن في المزج بين الجمال والمنفعة، وحينما تُصنع قطعة بموهبة، ومهارة، وإخلاص، وحبّ، فإنّها تصبح قطعة ''فنيّة''.

عندما أصنع زهريّة أو كوبًا من الزجاج، تتاح لي فرصة للتعبير عن الإبداع والمهارة والعمل الجادّ، والأتراك أيضًا يفكّرون بهذه الطريقة؛ فأعمالهم مصنوعة بعناية وحبّ، وهذا ما يميّزها عن المنتجات جملة؛ فهناك عين تزن القطعة، ويد تلمسها، فتعكس الإرادة والروح الفرديّة، وأحيانًا تحمل البصمة التركيّة بالغة التميّز، ويعتقد الأتراك أنّ الفنّ ينبغي أن يظهر في الأنشطة اليوميّة جميعها، من صبّ الماء إلى نقل الخضراوات وتقليب محتويات القدور؛ فيضفون جلالًا على أنشطة الحياة اليوميّة، ويملؤونها سموًّا، وجمالًا، وروعة.

نجد في نهاية المطاف أنّ مسعى فنّاني ''المشغولات'' وفنّاني الفنون الجميلة واحد؛ نسعى جميعًا إلى الإبداع، ونبذل من أنفسنا في فنّنا من خلال تنمية مهاراتنا، ونحن فضوليّون نتحدّى الحالة الراهنة؛ لنتجرأ،

ونحلَم، ونحاول أن نتعلّم من أعمالنا، ونعتقد أنّ عمليّة الإبداع أهمّ من المنتج النهائيّ، ونحاول أن نفهم الفنّ العميق الكامن فينا، ونعطي أهميّة خاصّة للعين الثالثة بداخلنا؛ يمكنني أن أرى انعكاسات هذه المساعي كلّها، حينما أنظر إلى سجّادة أو ملعقة خشبيّة تركيّة، وأشعر في كلّ زهرة ساحرة مرسومة على طبق من إزنك بمشاعر حبّ الطبيعة وعناصرها الغنيّة الممتزجة بالألوان التي يشعر بها الأتراك كلّهم، وأشعر مع كلّ انحناءة للخطّ العربيّ بقلب يتّجه إلى الله، وأرى في كلّ عقدة منسوجة وجه امرأة تركيّة، وأشعر بدفء مشاعرها وابتهاجها بالحياة.

يا لها من عقد! من بين الفنون التركية كلّها أجدني منجذبة انجذابًا خاصًا إلى هذه السجاجيد الغنيّة بالألوان؛ فالعقد في السجاجيد تتحدّث إليّ بقوّة الكلمات، تمامًا، مثل تلك الأحجار الذهبيّة التي حدّثتك عنها من قبل، وأخبرتك في بداية هذه الرسالة يا سيدة ماري أنّي أميل بوجه خاصّ إلى القرى الصغيرة والسجاجيد البدويّة، يمكن أن نأخذها معنا لنجلس عليها على ضفاف البوسفور في نزهتنا؛ لا أتحدث عن السجاجيد الضخمة في القاعات الكبرى العائدة إلى القرن السادس عشر؛ إذ تختلف اختلافًا تامًّا عن سجاجيد القرى؛ فتلك من صنع الذكور تحت إشراف البلاط، وتأثّرت إلى حد بعيد بالعناصر الجماليّة الفارسيّة؛ إذ كان النسّاجون ينفّذون رسومات متقنة رسمها فنانو البلاط، لكنّني أتحدّث عمّا أسميه "السجاجيد السحريّة"؛ سجاجيد تُصنع في القرى الصغيرة أو القبائل البدويّة، وأغلب النماذج الرائعة الباقية حتى الآن كانت قد نُسجت في الفترة بين عامي (١٨٥٠م - ١٩٢٥م) باستخدام أصباغ طبيعيّة مستخرجة من الخضراوات، ولا تزال ألوان هذه السجاجيد تشِعّ حياة كيوم نُسجت، ولا تزال ألوانها وأشكالها تُلهم النسّاجين اليوم، ومنذ القدم حتى اليوم تشارك مختلف الأيدي السحريّة في صنع السجاجيد، كأيدي الرجال والنساء الذين رعوا الغنم، واعتنوا بها، وجزّوا أصوافها،

ومشّطوها، وغزلوها خيوطًا، وجمعوا الأعشاب لصنع الأصباغ، وصبغوا الصوف، وصنعوا الأنوال، وعقدوا عُقد السجاجيد بتصميم في ذاكرتهم البصريّة اليدويّة، وقد صنعت هذه السجاجيد النافعة لأغراض دينيّة، أو منزليّة، أو زراعيّة، أو لتوضع في صندوق العروس، أو لتباع في السوق، حملها القرويّون على كواهلهم، وأكلوا عليها، ونامـوا، أو التحفوا بها، وكانت تُستخدم أيضًا أبوابًا للخيام، وحاويات للملح والطعام، ومهودًا للأطفال، وأحلاسًا للدوابّ، وزينة للخيام، أو كانت هي نفسها جوانبَ خيام تُطْوَى وتُثنَى؛ قد تكون السجاجيد السحريّة بساطًا من العقد أو كليمًا رخيصًا أو قطعة مطرّزة، وقد تتّخذ مجموعة واسعة من الأشكال وفقًا للغرض منها؛ فالسجّادة جزء مهمّ من حياة المنزل التركيّ، شأنها شأن من يقيمون فيه.

أجد السجاجيد بالغة الروعة؛ لست خبيرة في صناعة السجّاد، ولا أنظر إليها بعين مؤرّخ فنيّ، بل أنظر إليها بعين الفنّان، وأتفاعل معها على المستوى البصريّ والحسيّ الخالص، فعندما أرى سجّادة لا أجثو على الأرض؛ لأعدّ عقدها، ولا أحلّل ألوانها؛ فالقطع الفنيّة والتصميمات المألوفة الموصوفة بسهولة، غالبًا ما تكون عملًا رائعًا مدهشًا في مغزاه ورمزيّته، إذ يبتكر النسّاجون قطعًا جميلة تثري الروح وتشبع الفكر، شأنها في ذلك شأن أيّ عمل يوصف بأنّه عمل فنيّ عظيم.

علمتني السجاجيد التركيّة كيف أستخدم مبادئ التصميم نفسها التي تجذبني إليها في ممارستي فنّ صناعة الزجاج؛ فهذه السجاجيد غنيّة بالألوان، تعتمد على درجات ظلال تستخدم الألوان الشاحبة، والألوان الأساسيّة، وخليطًا من كل ما في قوس قزح من ألوان مع اختلاف درجات تلك الألوان، وغالبًا ما يُنتقى لون دافئ خاطف للبصر؛ ليبرز بوضوح؛ فهي سجاجيد صريحة عفويّة مفعمة بالحيويّة، جريئة من حيث التصميم واللون، لا تخشى نشوز الأشكال أو فوضى الألوان غير

المقبولة؛ بعض السجاجيد قد تذهلك قوتها وألوانها ووضوحها، وبعض القطع الأخرى ينبعث منها سكون تامّ مستمدّ من البصمة الناعمة الرقيقة ذات الارتباط بعنصري التصميم واللون؛ والصوف المستخدم كثيف لكنّه مرِن؛ فيضفي على السجاجيد عمقًا؛ أشعر كأنّها سجاجيد حيّة؛ ربّما لأنّ صوفها يظلّ حيًّا بطريقة ما، وربّما لأنّني أستطيع أن أشَمّ رائحة الطبيعة في أصباغها الطبيعيّة الليّنة المستخلصة من النباتات، والمعادن، والعناصر الحيوانيّة المتوفّرة في الطبيعيّة حولنا؛ والسجاجيد القرويّة تتلألأ، وتنبض بالحياة، وتغنّي كالأزهار، وأشعّة الشمس، والطيور، والحيوانات، والنجوم، وأقواس قزح، والحقول الخضراء المرسومة عليها، ولا تستحيي من عيوبها، بل إنّها تسعى غالبًا لتضمين البصمة التركيّة؛ لتبدو ساذجة متواضعة؛ تلك العيوب الصغيرة الظاهرة في الحرفة تشير إلى اليد البشريّة في المنتج النهائيّ، وكلّ ما تتمنّاه هذه السجاجيد المتواضعة أن تُقابَل بالتقدير وهي كما هي؛ لهذه الأسباب وغيرها من أسباب عاطفيّة كثيرة، تبثّ فيّ هذه السجاجيد سعادة وبهجة صادقة.

لا ينبع افتتاني بالسجاجيد من رؤية فنيّة فحسب، بل أيضًا لأنّها تتحدث إليّ بوصفي امرأة؛ فلا شكّ أنّني منجذبة لهذه السجاجيد الريفيّة والبدويّة لأنّها تمثّل فنًّا أنثويًّا؛ لطالما كانت السجاجيد والمنسوجات في الأغلب فنونًا أنثويّة، تنمو وتزدهر بعيدًا عن هيمنة المنظور الذكوريّ؛ فهي بمنزلة صور شخصيّة للنساء التركيّات؛ تمثل تعبيرهنّ الشخصيّ المفعم بمعانٍ خاصّة، لكنّها في الوقت نفسه تمثّل تصريحًا علنيًّا للعالم كلّه؛ إذ تمنح السجاجيدُ النسّاجة شعورًا بارتباطها بما حولها، تمامًا كرسائلك لأصدقائك يا سيدة ماري؛ تلعب المرأة التركيّة بالعُقَد، كما نلعب أنا وأنت بالفِكَر والكلمات.

السجّادة مستقلة استقلال من نسجها؛ فعندما أنظر إلى سجّادة، أفكّر دائمًا فيها؛ فلكلّ نسّاجة بصمة خاصّة خصوصيّة شعر صغيرها

أو بشرة زوجها؛ مثلًا قصيرة هي أم طويلة؟ كم عدد أطفالها؟ أتطيع زوجها أم تجادله؟ أجميلة هي؟ كيف ضحكتها؟ هل تحلَم بما أحلَم به؟ ما هي مشاعرها ورغباتها؟ وأحاول أن أخمّن عمرها بناءً على مستوى حِرَفيّتها؛ صحيح أنّ هذه السجاجيد لا تحمل توقيع صانعتها، لكنّها تفتح نافذة خاصّة جدًّا على روحها؛ فأشعر بالارتباط بالنسّاجة؛ إذ أرى بعض نفسي في السجّادة كما تترك بعض نفسها فيها؛ فآثار لمستها وحبّها واضحة فيها، كما تتّضح في احتوائها زوجها وأطفالها، أتخيّل أحيانًا أنّني أرى نساء حمراوات الشعر في السجاجيد المربّعة الزاهية المنسوجة غرب تركيا، ونساء بنّيّات الشعر في سجاجيد الصلاة الصفراء الدكناء المنسوجة أواسط الأناضول، ونساء سوداوات الشعر في جيوب السُّرُج الدكناء المنسوجة شرقًا.

أعمل في صَهْر الزجاج، وهو عنصر صعب يتطلّب جهدًا كبيرًا لإتقان صناعته؛ فأدرك ما تواجهه النسّاجة من صعوبات؛ فعمل عُقَد السجاجيد لون من ألوان الفنون الصعبّة أيضًا، وأحيانًا أشعر كأنّني أجلس إلى جوار النسّاجة أمام النَوْل، وأستشعر تفاوت قوّة يديها وقوّة شدّ الخيط من يوم لآخر مع كلّ تغير في العُقَد، وأشعر بخيبة أملها عندما تجد صعوبة في تنفيذ الشكل؛ فيخرج المنتج مخالفًا، أو عندما تغيب عن ناظرها نقطة المركز الحمراء التخيليّة بثلثي السجادة؛ فتراودني المخاوف نفسها، وأتمنّى أن تصبح قطعتي صحيحة في النهاية؛ لأنّ صنع الأشياء الجميلة يتطلّب شجاعة يا سيّدة ماري.

أرى في هذه السجاجيد تعبيرًا عن وجهة نظر امرأة ما في العالم، وأجد فيها مكوّنات حياتي نفسها بوصفي امرأة عصريّة غربيّة، وهي تشمل العمل، والأسرة، والحياة العاطفيّة، والمجتمع، والجانب الروحيّ؛ إذ تتمتّع هذه السجاجيد بحياة خاصّة وقصّة فيها، تبدوان في ترتيب الألوان، وتنسيق الزخارف، وغيرها من رموز ''السرد'' الأخرى ذات

الأهميّة السحريّة؛ لذا أعدّ هذا البحث عن وسيلة للتعبير عن عالم المرأة المختبئة أمرًا في غاية الشجاعة؛ ليتني ألتقي النساء خلف هذه السجاجيد؛ إذ تمتّعن بخصائص، أكافح للتحلي بها في حياتي؛ فكلّ منهنّ تبدو حادّة الذهن، ذكيّة، ماهرة كريمة، مبدعة، صبورة، منظّمة، قادرة على القيام بعدّة أعمال جادّة في الوقت نفسه؛ أنا معجبة بهنّ، وأتمنّاهنّ صديقات.

يؤمن الأتراك أنّ قدَرَ المرء مكتوب على جبينه، وأنّ الله حدّد مصائرنا قبل بدء الزمان، وأنّ إرادتنا الخاصّة لا تتحكّم في العالم، لكنّ هذا لا يتعارض والإرادة الإنسانيّة الحرّة؛ أعتقد أنّ النسّاجة يمكنها من خلال هذه السجاجيد أن تمارس تلك الحريّة؛ فتقرّر كيف سيتعاون يداها وعيناها وعقلها للتعبير عن روحها، ويمكنها أن تختار ألوانها لسبب شخصيّ؛ فاللون الأحمر لون التفّاح أو لون دمها أو حرارتها أو لون الغروب، والأزرق لون السماء التي تنظر إليها سعيدة، وتختار النسّاجة إطار السجادة؛ ليرسل رسالة من خلال رموزه؛ فيخبرنا إذا كانت قد أنهتها على عجل؛ لتعكس ألمها، وتختار الوحدات التي ستكرّرها، سواءٌ كانت تصميمًا عتيقًا أم تصميمًا تبتكره أثناء عملها؛ لا يسعنا إلّا أن نخمّن دوافعها؛ فقصّة كلّ امرأة، وعمل يديها، وجُلّ شخصيتها مسكوبة في هذه القطع؛ كأنّها تقول: اليوم بمساعدة هذا النول، أنا المتحكّمة، وقراراتي بيدي وحدي؛ فلا شأن لأطفالي وزوجي بما سأفعله، هذه عُقَدي أنا، وهذه السجّادة فرصتي للاتصال بالنساء الأخريات كلّهنّ، من خلال تراثي، ومستقبلي والتقاليد؛ إذ تسمح لي بالتعبير عن نفسي، وعن آمالي وتطلعاتي ومهارتي، وعن أهمّ شيء: حبّي.

تلك العقد ليست مجرّد خيوط متشابكة في نظر النسّاجة، بل خيوط تضمّ أحلامها، وردود أفعالها تُجاه مباهج الحياة وأحزانها واضطراباتها؛ فتستحيل السجّادة إلى تعبير شخصيّ قويّ متاحةٍ رؤيته للناس جميعًا؛ ليت نساء العالم كلّهنّ يستطعن إيجاد متنفّس مبدِع كهذا للتعبير عن أنفسهنّ.

أكثر ما يعجبني في هذه السجاجيد -بعيدًا عن جمالها الفنيّ والرابط الأنثويّ الذي يربطني بنسّاجتها- يتمثّل في كيفيّة تعبيرها عن الحيويّة والتميّز اللذين يميّزان المناطق الجغرافيّة المختلفة في تركيا؛ فهو بلد ذو تنوّع طبيعيّ هائل، يظهر بوضوح في هذه السجاجيد؛ فالسجاجيد المربّعة الثخينة المنسوجة في منطقة غرب بحر إيجة تعكس بساتين الزيتون وحقول القطن، بينما تبرز سجاجيد الصلاة المنسوجة في أواسط الأناضول زهور دوّار الشمس الصفراء، أمّا السجاجيد الكرديّة المنسوجة في المنطقة الشرقيّة، فتعكس القوّة الطبيعيّة للمناظر الجبليّة، ويعجبني بشكل خاصّ الرابط الاجتماعيّ بين هذه السجاجيد المتنوّعة، وبين البلاد والشعب التركيّ الذي عرفته وأحببته على مدار ثلاثين عامًا مضَتْ.

نسج السجّاد حِرْفة قديمة قدم البشر، وتركيا بلد حضاريّ يضمّ ثقافات تعود إلى عشرة آلاف عام؛ فأعُدّ هذه السجاجيد مرآة صادقة تعكس التراث الثقافيّ التاريخيّ المذهل الذي تشكّل من هذه الأرض وشعبها، وأرى في مرآة السجاجيد القرويّة خاصّة انعكاسًا لكثير من صفات الأتراك التي تعجبني، مثل: السهولة، والاستقامة، والدفء، والحنان، والجدّ، والاجتهاد، والكرم، والإخلاص، والاهتمام بما يصبّ في مصلحة الآخرين، والقناعة بأنّنا جميعًا في هذه الحياة أسرة واحدة على المستويين الضيق والواسع؛ حقًّا إنّ تركيا سجّادة غنيّة بالألوان صَنَع عُقَدها سبعون مليون شخص.

صديقتكم
كاثرين برانج

دَرَج يؤدي إلى مطعم ''باندیلي'' في إسطنبول

الجزء الداخليّ من ضريح السلطان جَمْ في بورصة

obeikandl.com

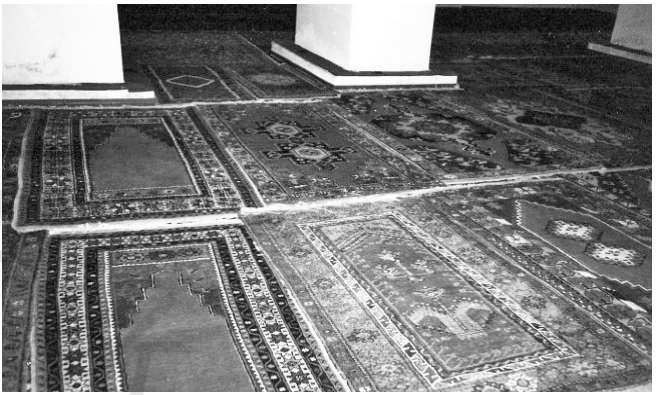

سجاجيد جامع إبليكجي في قونيا

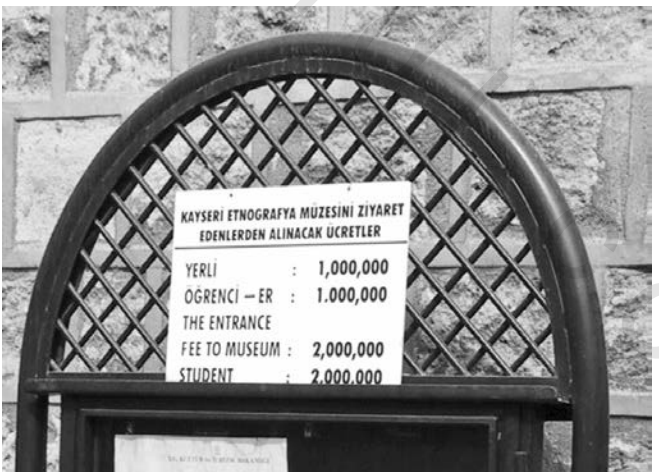

مدخل في متحف علم الأجناس بقيصري

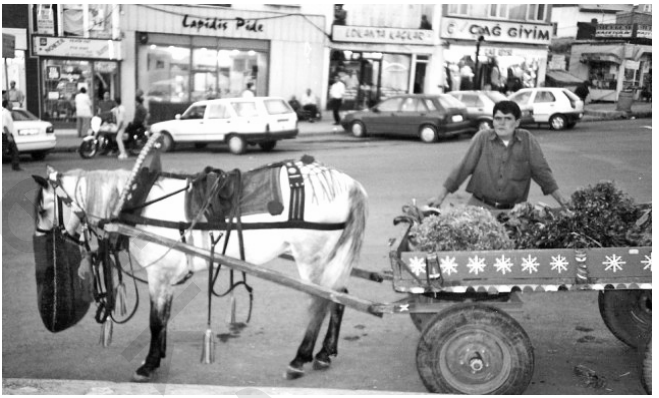

حِلس الحصان، وعربة مزرعة مزيّنة في أرضروم

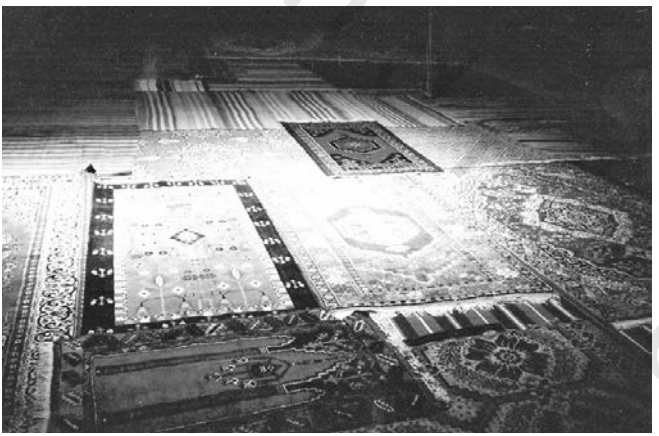

سجاجيد تليق بمصلّى سلطان، مسجد علاء الدين في نيدة

الرسالة الثالثة والعشرون

عثرْتُ عليه في قلبي

عزيزتي السيدة ماري،

عندما أسافر إلى تركيا، أمكث عادة بضعة أيّام في إسطنبول قبل أن أتوجّه إلى "تركيّتي" وسط الأناضول وشرقها؛ تساعدني هذه الأيّام القليلة أن أضبط إيقاعي، وأنتقل من الإيقاع الجنونيّ لمدينة نيويورك إلى الإيقاع الهادئ لتركيا، وأن أتأقلم مع مباهجها؛ فأضبط أذنيّ على وقع اللغة التركيّة العذب، وأتذوّق أوّل ملعقة من اللبن الخثير، وأسمع أوّل كلمة "يُوك: لا يوجد" وكلمة "وار: يوجد"، وأرى أوّل الوجوه المشرقة بالبسمة، وأتلقّى أوّل لمسة حنونة، وألاحظ بصمة تركيّة جديدة، وأعيش التجربة الأولى لسماع الأذان؛ تُعِدّني هذه الأيام القليلة لمزيد من الاستيعاب والتجاوب مع الاختلافات بين مجتمعِي الغربيّ المُتَمَدْيِنِ والأناضول.

بالمثل يا سيّدة ماري، فرحلتك عبر أوربّا كانت تمهيدًا مهمًّا قبل وصولك إلى تركيا؛ فكانت أوّل مواجهة حقيقيّة مع الاختلافات الثقافيّة؛ لا شكّ أنّ العادات الأوربّيّة لم تشبه عادات إنجلترا، خاصّة فيما يتعلق بالدين، ورسائلك من أوربّا حافلة بوصف التقاليد الدقيقة المنمّقة لدى تقليد المناصب في الكنائس الكاثوليكيّة، وعلى النقيض من

عقيدتك البروتستانتيّة السهلة، بدت لك الطقوس كلّها تأليهًا مبالغًا فيه، وقد تفهّمت رأيك تمامًا؛ لأنّني شعرت بأحاسيس مماثلة عندما ذهبت للعيش في المناطق الكاثوليكيّة من فرنسا؛ إذ تختلف الكاتدرائيّات القوطيّة الفخمة كلّ الاختلاف عن المقصورات الساذجة والمذابح غير المزخرفة في كنيستي الميثوديّة بوطني.

عقب مشاهدة مظاهر ''البابويّة'' كلّها في طريقك، تغيّر كلّ شيء لدى وصولك إلى بلجراد وإقامتك في منزل معلّمك أحمد أفندي؛ إذ منحك أوّل فرصة للتعرف إلى الإسلام، الذي وصفته بأنه أكثر تناسبًا مع تعاليم البروتستانتيّة السهلة؛ لأنّنا نحن الاثنتين نتّبع المذهب البروتستانتيّ، فقد حضرنا إلى تركيا بعقليّة منفتحة على هذا الدين الخالي من المناصب، والتماثيل، وملابس الطقوس الدينيّة المزخرفة، وفي سعيك لفهم العلاقات بين الثقافتين، تحدّثتِ مرارًا مع أحمد خلال الأسابيع الثلاثة التي أقمتِها في منزله:

> ''منحني الحديث اليوميّ الوديّ مع أحمد أفندي الفرصة للتعرف إلى دينهم وأخلاقهم بتفاصيل أدقّ ممّا فعل أيّ مسيحيّ من قبل؛ شرحت له الفرق بين مذهبي إنجلترا وروما، وسُرّ لدى سماعه أنّ هناك مسيحيّين لا يتعبّدون للتماثيل ولا يؤلّهون السيّدة مريم العذراء؛ شعر أنّ تحوّل الشكلين -تحوّل الخبز والنبيذ إلى لحم المسيح ودمه في الطقوس الكنسية- فكرة حمقاء، وأكّد أنّني إذا أتقنت اللغة العربيّة، فسأسعد كثيرًا بقراءة القرآن؛ فهو أفضل منهج أخلاق نزل بأفضل اللغات، وسبق أن سمعت بعض المسيحيّين الموضوعيّين يتحدّثون عن القرآن بالأسلوب نفسه...''.

أكّدت زيارتك لجامع السليميّة بأدرنة شعورك بالارتياح تجاه سهولة تعاليم الإسلام، وفي ذلك تقولين:

"في رأيي من أوجه الجمال الإضافيّة أنّ المسجد غير مقسّم إلـى مقصـورات، ولا يعجّ بالتماثيـل والمقاعد الخشـبيّة كما في كنائسنا، وأنّه يخلو من الأعمدة المشوّهة بتماثيل صغيرة مزخرفة، وصور تضفي على الكنائس الكاثوليكيّة طابع متاجر اللُّعَب".

ذكـرتِ الديـن كثيـرًا في رسـائلك، وتحدّثت عـن اليهود فـي أدرنة، وكيـف تمكّنوا من جعل أنفسـهم جالية لا يمكن الاسـتغناء عنها لأعمال السـلطان، وحاولـتِ أن تصحّحـي كثيـرًا من المعتقـدات الغربيّة السـلبيّة عـن تركيـا ودينها، ودحضـتِ الرؤية الغربيّـة المنادية بعـدم منطقيّة الدين الإسـلاميّ، حتى إنّك شـكّكت في كون أوربّا مهد المنطق والفكر، ورغم أنّـك انتقـدت العقيـدة الكاثوليكيّة الأوربّيّـة في رسـائلك، فإنّك تحدّثت عـن الإسـلام برقّـة ولطـف، وتمكّنـتِ مـن التغاضـي عـن المذاهـب والاختلافات، وما نتج عنهما من آثار مجتمعيّة، حاولت أن أفعل الشـيء نفسه في تعاملي مع الإسلام.

كـم كان أحمد دليلًا رائعًا ومدهشًـا ومقنعًا! إذ كتبت لصديقك القس كونتي رسـالة بتاريخ الأوّل من أبريل/نيسـان عام ١٧١٧م عقب وصولك إلى أدرنة، تطلعينه فيها على انطباعاتك عن الإسلام:

"لا شـكّ أنّ معرفتنا بأخلاق هؤلاء النـاس وعاداتهم قاصرة جـدًّا؛ فهـذا الجزء من العالم لا يرتـاده إلا التجّار غير المبالين إلّا بشؤونهم الخاصّة، أو الرحّالة المقيمون فترات أقصر من أن تتيح لهـم تسـجيل أيّ شـيء بدقّة؛ إذ إنهـم يعتمدون علـى معلوماتهم الشخصيّة".

ليس من المستغرب محاولتك استكشاف العادات التركيّة، فأنت امرأة علـى قدر كبير من الذكاء، والحساسـية، والفضول، والأهمّ من ذلك أنّك محظوظـة؛ فلسـت مجرّد مسـافرة عابرة؛ ففي كلّ عام يـزور تركيا ملايين السـائحين، يأتي جلّهم من بلدان غير إسـلاميّة، يستمتعون بجمال الطبيعة

openkanari.com

في الريف، ويزورون المواقع التاريخيّة لمختلف الحضارات، ويستجمّون على الشواطئ، ويروّحون عن أنفسهم في الملاهي، يزور أغلبهم أحد المساجد ضمن برنامج المجموعة السياحيّ، ودائمًا تكون الزيارة إلى مسجد السلطان أحمد الشهير ''المسجد الأزرق'' في الهيبودروم -ميدان سباق الخيل- في إسطنبول، غير أنّ هؤلاء السائحين قبل هذه الزيارة لاحظوا الأفق الحافل بمآذن على شكل القلم الرصاص، والنساء المحتجبات، وبالطبع تناهى إلى أسماعهم صوت الأذان المتردّد في كلّ مكان خمس مرّات يوميًّا في أنحاء المدينة كلّها عبر مكبّرات الصوت، وعادة يوقظ السائحين المنهكين من الرقص في الملاهي وقت الفجر، وهذه النداءات المتكرّرة هي الإشارة الوحيدة غالبًا أنّ تركيا بلد يجهر بشعائره الدينيّة، أمّا أنت يا سيّدة ماري، فقد استغرقت وقتًا لتفهم الإسلام كما يعيشه الأتراك ويشعرون به في الواقع.

تركيا بلد تقيّ يتجلّى إيمانه اليوميّ في تصرفات لافتة للانتباه، غير أنّ أغلب السائحين لا يحضرون إلى تركيا لاكتشاف أو فهم طبيعة الشعائر الدينيّة، أو العادات والتقاليد المتعلّقة بهذا الدين الحيّ، بل دائمًا يأتون برؤية مشوّهة؛ والأمر يتطلّب أكثر من مجرد الإعجاب بذلك البلاط الأزرق للوقوف على حقيقة هذا الدين؛ فيتطلّب فهم ما يحدث في تلك المساجد، والسبب في ركوع المسلمين وسجودهم أثناء صلاتهم على تلك السجاجيد الملوّنة، وكيف يطبّقون دروس المسجد على الحياة خارجه؛ أنا أيضًا معجبة بقباب مسجد سِنان وبلاط مسجد إزنك، ويعجبني خاصّة منظر التلال السبعة في إسطنبول تيجانًا على المساجد السلطانيّة، لكنّ زيارة تركيا دون محاولة فهم ما يمثّله ذلك كلّه أشبه بتجاهل قيمة النوافذ ذات الزجاج الملّون في كاتدرائية ''شارتر''، أو إغفال مظاهر الصوم الكبير في روما؛ فمن الضروريّ فهم سبب استخدامهم جميعًا لحبات السُّبَح، وسبب وضع النعش في ساحة المسجد سافرًا، وسبب

ثـراء اللغـة التركيّـة بكثير من التَّحَايا الإسـلاميّة؛ لا بدّ أن نسـتوعب كيف يعيـش المسـلمون الجوّ الروحيّ فـي دور العبادة وفـي منازلهم الخاصّة، وأن نفهم الرسـالة التي أراد سِـنان أن يرسـلها ببناء قباب عريضة، وبلاط فخم، ومِساحات مفتوحة للعبادة خالية من المقصورات والمقاعد.

جعلتني رحلاتي إلى تركيا أشـكّ في معتقداتي المسـيحيّة كما حدث معـك يا سـيّدة مـاري، وأوصلتني إلى البحث عن أرضيّة روحيّة مشـتركة بين المسـيحيّة والإسلام، وهي موجودة بلا شكّ؛ كلّنا نبحث عن المغزى وراء وجودنـا، وقـد نسـير فـي مختلـف الطرق لاكتشـاف هـذه الحقيقة، أحدهـا طريـق الدين؛ فكلّ شـخص على وجـه الأرض –الملحد، والتقيّ والجاهل– لديه نوع من الدوافع الروحيّة؛ ويبحثون عن إجابات للأسـئلة نفسـها المتعلّقة بسـبب وجود البشـر، وعن أهمّ الأشـياء في الحياة الدنيا وفـي الآخـرة، وعن أهميّة الـدور الذي يلعبـه كلّ من الحبّ، والشـعائر، والأخـلاق في حياتنـا؛ يتعلّم أغلبنا البحث عن هـذه المعاني في التقاليد، والشـخصيات البارزة، والنصوص المقدّسـة، والقدّيسـين، ورجال الدين، وأنبيـاء السـماء؛ ومـن ثـمّ كلّمـا تعلّـم الإنسـان عـادات تخالـف عاداته وثقافـة نشـأ عليها، كان أقدر على الوصول إلـى المغزى والحقيقة، يمكن فـي الحقيقـة العثور على هـذه المعاني في الديـن، لكنّها أيضًـا في الفنّ، والفلسفة، والطبيعة، والعمل، وحديث النفس الخاصّ الوديّ، وفي العلم، وفي خدمة الآخرين؛ ليس هناك طريق واحد، ولا صوت واحد، ولا نصّ واحد؛ فالعالم أكبر من ذلك.

علّمتنـي تجاربـي فـي تركيـا كيـف أنّ هـذا العالـم شاسـع جـدًّا، وشـجّعتني على مواجهة أفكاري المدهشـة، المؤثرة فيّ، المثيرة لغضبي، لكنّهـا فـي نهايـة المطاف تعيـد تجديد رؤيتـي للأمور، وفي تركيـا اليوم، كمـا هـو الحال في بـلادي، نحـاول إدراك دور الدين والأخـلاق في كلّ شـيء، ليـس فقط في أماكـن العبادة، أو فـي التعامل مـع القضايا المهمّة

في الدنيا والآخرة، بل في التعامل أيضًا مع القضايا اليوميّة الخاصّة بالزواج، والأسرة، والمجتمع، والأخلاق، والصعوبات العلميّة، وضبط الغرائز، والمبادئ السياسيّة، والقواعد الحاكمة؛ وبدلًا من طرح إجابات جامدة للمشكلات التي تثيرها هذه القضايا، يمكننا تأمّلها من منظور حكمة أديان كثيرة؛ لتزداد فرص مشاركتنا لها، ومواجهتها، وإيجاد حلول عمليّة تحترم الأفكار كلّها.

من أصعب القضايا الروحيّة اليوميّة قضايا الشرّ، وألم الموت والأحداث المأساويّة، وضعف الحريّة، والمعاناة، وأهميّة الأديان النظاميّة؛ لا أستحي أن أقول: إنّني أشكّ، وأناضل، وأغضب؛ لأنّ هذا كلّه يعينني على جعل هذه القضايا من أولويّات وجودي، ويساعدني على استكشافها قدر استطاعتي، وتساعد أوقات الأزمات في بناء معنويّاتي، وتساعدني أن أقرّر إذا ما كنت سأتّخذ إلهًا أم لا، لكنّها أيضًا تمنحني الشجاعة؛ لأحاول إصلاح ما أراه خطأ حولي، ورغم هذه الصراعات ولحظات الشكّ، لا أخجل أيضًا أن أقول: إنّ هناك معجزات لا أجد لها تفسيرًا منطقيًّا، ولحظات سعادة وحبّ بالغة لا يمكن تفسيرها حتى إنّني لا أصدق أنّها من قبيل الصدفة، وثمّة لحظات غامضة أشعر فيها وكأنّ العناية الإلهية تصحبني، ولا أستطيع تفسيرها بمساعدة الظواهر العلميّة الحسيّة، كلقاء روح شقيقة، أو الوقوع في الحبّ، أو الانغماس في لحظة جمال طبيعيّ، أو الشفاء المعجز من مرض، أو النجاة من حادث أو مأساة، وهذه الأمور كلّها تشجّعني على استكشاف مشكلتين أصعب؛ هما الخوف والشرّ؛ فيدفعني هذا إلى الإيمان بأنّ ثمّة كَيانًا يسمى: الربّ أو الإيمان الروحيّ.

بالرغم من إيماني، فكثيرًا ما يصعب عليّ أن أتقبل أو أحتمل فظاعة عالمنا المعاصر ووحشيّته، غير أنّ معايشتي للإسلام منحتني الشجاعة؛ إذ جعلتني أراجع ما أراه مهمًّا في تعاليم ديني، وفي الثراء الحقيقيّ لمنهجي المسيحيّ؛ فأراجع أنماط الشعائر الدينيّة بعينٍ أُخرى غير التي

كنتُ أراها بها، وأسعى إلى أشكال أخرى من التفكر في هذه القضايا المعقّدة، ولفهم هذه القضايا الشخصيّة، ولفهم صورة الإسلام الممارس في تركيا والتحدّيات الاجتماعيّة المعاصرة التي يفرضها الإسلام عليها؛ التقيت بأحد الصوفيّة المثقّفين، وهو أستاذ في علم مقارنة الأديان في قيصري، وقابلت نساء فقيرات في القرى، وضباطًا مخلصين في الجيش، وطلبة يتعلمون الرقص المولويّ في قونيا، وشخصًا يساريًّا ملحدًا متعصّبًا في إسطنبول، وعجوزًا يونانية في بيرا، وموسيقيّين علويّين في ألبستان، وأشخاصًا من مختلف طرائق الحياة؛ لم يكن سهلًا عليّ ألبتة فهم صور الإيمان الكثيرة في تركيا؛ لأنّها تتّسم بتعدّد الألوان والأشكال والموضوعات، وبقدر سهولة الإعجاب بالخزف الياباني في بلاط إزنك رأيته في جامع السليميّة بأدرنة يا سيّدة ماري، يصعب فهم المعاني الحقيقيّة لصور الإيمان كلّها في تركيا، لكن بقدر ما تبدو الحياة الإسلاميّة في تركيا الحديثة معقّدة، فثمّة أمر واحد مؤكّد لي؛ فلطالما شعرت بالراحة في تركيا؛ لأنّه بلد يتجلّى في أركان شوارعه كلّها تاريخ المسيحيّة.

شهدَت الأناضول، أرض تركيا الحديثة، طبقاتٍ كثيرة من الحضارات طَوال عشرة آلاف سنة مضَت، ومرَّت عليها إمبراطوريّات عدّة تركَت آثارها هنا: الأراراتيّون، والحيثيّون، واللوقيّون، والليديّون، والأرمن، واليونانيّون، والرومان، والبيزنطيّون، والسلاجقة، والعثمانيّون، وجمهورية تركيا الحديثة، ورغم الاختلاف بين هذه الحضارات في سياساتها ولغاتها وعاداتها وديانتها، تشابهت قيمها العامّة، المتسرّبة بقاياها لتمتزج بالثقافة المعاصرة، وهي قيم إنسانيّة عامّة تشمل العواطف والمشاعر المتأصّلة في التجربة الإنسانيّة وتوحّد البشر كلّهم على الأرض، رغم اختلافهم مكانًا وزمانًا، ولعلّ قيمة الإحسان من بين هذه القيم الإنسانيّة كلّها هي الأكثر قربًا لنفوس الأتراك، بدءًا من يونس أمرهْ، مرورًا بمولانا جلال الدين الروميّ، إلى يومنا هذا، فالعبارة نفسها تتردّد: هذا مكان متسامح، يحقّ

للأشخاص فيه اختيار تعاليمهم الروحيّة وسلوك الطريق الذي يشاؤون.

وأنا كمسيحيّة، وجدت ثراءً هائلًا في هذا البلد الجامع بين آثار التاريخ والدين في سلاسة طبيعيّة، ليشكّل ما يشبه الأرض المقدّسة الخاصّة بكلّ شخص، و(تركيّتي) أرض إيمان؛ فقد كانت إسطنبول روما الجديدة؛ إذ وضع قنسطنطين الأوّل حدًّا لاضطهاد المسيحيّين، أمّا عقيدة نيقية التي ردّدتُها مرارًا وتَكرارًا أثناء طفولتي في الكنيسة، فقد كُتبت هنا في إزنك، المدينة صانعة هذا البلاط كلّه في مساجد سِنان، والخزف الياباني الذي أعجبك في جامع السليميّة يا سيّدة ماري، ويُعتقد أنّ سفينة نوح استوت على قمّة جبل أرارات شرق تركيا، حينما غيض ماء الطوفان العظيم، حيث أسّس الأراراتيّون مملكتهم قديمًا، ويخبرنا العهد القديم أنّ النبيّ إبراهيم وُلد في مدينة أور قرب نهر الفرات، عُرفت لاحقًا باسم إديسا، وأصبحت مقرّ أوّل دولة صليبيّة عظمى خلال أولى الحملات الصليبيّة للملك بالدوين الثاني عام ١٠٩٦م، واليوم يطلق الأتراك على هذه المدينة اسم ''شانلي أورفا'' أي أورفا المجيدة، وهي مجيدة حقًّا؛ إذ يصعب العثور على مكان مقدّس يضمّ آثارًا للأديان الثلاثة سوى القدس؛ وفي مدينة حرّان المجاورة وُلد إسحاق وإسماعيل ولدا النبيّ إبراهيم، والتقى يعقوب زوجته راحيل وهي تحضر الماء من أحد الآبار في حرّان، ومذ ذاك رُسِمَت خريطة العالَم الأخيرة؛ فانحدر من نسل يعقوب بن إسحاق أنبياء الله: موسى وداوود والمسيح، وانحدر من نسل إسماعيل النبيّ محمد، نبيّ الإسلام؛ فالتجوّل في شوارع هذه المدينة رحلة حجّ حقيقيّة إلى جوهر أديان العالم التوحيديّة الثلاثة وكلّ ما تمثّله للإنسانيّة، وغبارها الدافئ مفعم بذكرى أنبياء تلك الشرائع كلّها؛ فيدفعك هذا للمشي بخشوع عبر شوارعها الخلفيّة الضيّقة وأسواقها على أحجار صقلتها قرون من وقع الخطوات المقدّسة!

ما يعنيني -وأنا المسيحيّة البروتستانتيّة- هو آثار خطوات بولس في تركيا، وُلد بولس في تركيا، في مدينة طرسوس، قرب مدينة مرسين في سهل شوكروفا؛ ولأعثر عليه خرجت في حجّ خاصّ إلى أنطاكيا العتيقة، كي أزور هذه المدينة مقرّ أوّل أنشطته، في هذا المكان نشأت حركة أتباع المسيح، وسمّوا أنفسهم: المسيحيّين، كان برنابا -أحد أتباع المسيح- قد دعا بولس إلى هذا المكان للعمل إلى جانب بطرس، ومرقس، ويوحنا، لدمج تعاليمه في تعاليم المسيح؛ أردت أن أكتشف بنفسي أنطاكيا الشهيرة، فالجامعة المتميّزة قرب منزل الطفولة بأوهايو سُمِّيَت باسمها، وكان صدى اسمها يرنّ على المنبر في تلاوات رسائل بولس، كنت أسمعها في الكنائس خلال نشأتي، وهي مدينة تاريخيّة، أشيد بها في حصص التاريخ الفرنسيّ، حينما استولى عليها بوهيموند الصليبيّ؛ ليجعلها مملكة له، إنّها مكان أسطوريّ خطَت منه المسيحيّة أولى خطاها.

بينما كنت أجوب شوارع هذه المدينة النائية، تعذّر عليّ تصوّر أنها كانت في يوم ما من أكبر مدن الإمبراطوريّة الرومانيّة، نِدًّا للإسكندريّة، وأنّها كانت عامرة بالصروح العامّة الرائعة، وحلائب الرياضة، وقِنَا المياه، والدُّور الخاصّة المزينة بالفسيفساء الفخمة، حاولت أن أتخيّل شكل المدينة في ذلك الزمن، حينما كانت مفترقًا لطرق التجارة، وموضعًا لا يحوي الفخامة فقط، بل الزلازل والفساد أيضًا، كانت مدينة قويّة حتى إنها أغرت بولس أن يبعث منها أولى إرساليّاته على مدى سبع سنوات بداية من عام ٤٧م، وبينما كنت أمشي على شاطئ تشيفليك، -وهي القرية المجاورة لميناء أنطاكيا، وساحلها الآن مهمل، وملوّث، وقذر، على عكس تلك الأيّام المجيدة- حاولت أن أتخيّل قوّة الإيمان الملهمة لبولس ليدفع زورقه الصغير؛ فيبحر عبر البحر المتوسّط إلى أنطاليا لإلقاء أولى عظاته، وبينما كنت أحدّق غربًا عبر المياه، حاولت أن أتصوّر معدن هذا الرجل المشغوف بنقل الأخبار عن حبّ الربّ،

حينئذٍ أدركت أنّني أنظر إلى الموضع الذي غيّر للأبد مصير العالم المعروف؛ إذ نشأت الكنيسة المسيحيّة هنا تمامًا فوق الرمال التي أقف عليها، وسمعت صوت بولس يتردّد في الأمواج المتلاطمة: ''لَيْسَ يَهُودِيًّا وَلاَ يُونَانِيًّا. لَيْسَ عَبْدًا وَلاَ حُرًّا. لَيْسَ ذَكَرًا وَلا أُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِد.''، ثمّ تبعت خطاه إلى أنطاليا، حيث ترجّل عن الزورق؛ لينشر كلمة الحبّ، مسافرًا من هناك سيرًا على الأقدام، راكبًا عربة في طرق الأناضول المتربة الحارّة؛ وزرت مدينة قاسطمونى، ويعدّها كثيرون مقرًّا لجماعةٍ أوحَت لبولس بكتابة إحدى أهمّ رسائله، رسالته إلى أهل غلاطية، كان غضبه من أعضاء الكنيسة هناك من دوافع كتابته هذه الرسالة، أنشأها، ثمّ حادت عن تعاليم المسيح الأصليّة؛ حاولت أن أتخيّله يضرب بقبضته الطاولة بغضب يجعله يكتب: ''أَيُّهَا الْغَلاَطِيُّونَ الأَغْبِيَاءُ!''، عبارة احتجاج اعتدت سماعها في عظات الأحد أثناء نشأتي، وأصبحت رمزًا لتداعيات العدول عن الطريق القويم للحبّ، أتذكّر أيضًا أنّني قرأت في سفر أعمال الرسل بالعهد الجديد جزءًا ألقى فيه بولس موعظته في معبد يهوديّ في قونيا؛ الآن حينما أتجوّل في الشوارع الخلفيّة الملتوية لهذه العاصمة السلجوقيّة المقدّسة، أحاول أن أتخيّل مكان هذا المعبد، ويتناهى إلى سمعي صدى صوت بولس مختلطًا بأصوات علاء الدين كيقوباد والروميّ.

زرت مواقع الكنائس السبع المذكورة في رؤيا نهاية العالم -منها متهدّم ومنها مرمّم- وصفها يوحنا في سفر الرؤيا؛ يبدو أنّ المسيح أخبر يوحنا: ''ما تَرَاهُ اكْتُبْه إِلَى سبْعِ الْكَنَائِسِ فِي أَسِيَّا: أَفَسُسَ، وَسِمِيرْنَا، وَبَرْغَامُسَ، وثِيَاتِيرَا، وسَارْدِسَ، وَفِيلاَدَلْفِيَا، وَلاَوُدِكِيَّةَ'' (سفر الرؤيا ١:١١)؛ كان المقصود بذلك جماعات مسيحيّة أكثر منها كنائس مسيحيّة، لكنّها كانت تمثّل مهدًا خرجت منه العقيدة المسيحيّة وانتشرت في بقيّة العالم، وتقع هذه الكنائس في مدن تركيّة فقدت أهميّتها الآن بوصفها مواقع مسيحيّة، وهي إزمير (سميرنا)، وبرجاما (برغامس)، وأسكي حصار

(ثياتيرا)، وساردیس، وألاشهير (فيلاديلفيا)، وإسكيهيسار (لاودكية)، وأكثر هذه الكنائس إثارة للمشاعر هي الواقعة في مدينة أفسس، كانت في الماضي مستعمرة يونانيّة؛ فهنا على مقربة من أهمّ المكتبات المشيّدة في العصور الرومانيّة، أتى يوحنا بمريم والدة المسيح كي تقضي خريف عمرها؛ ويتشابه التأثير العاطفيّ لهذه المواقع كلّها؛ إذ أشعر كأنّني أُطوِّف في آيات الإنجيل!

زرت كنائس بيزنطيّة مهجورة متوارية خلف الضباب الأبيض الكثيف لجبال البحر الأسود الشاهقة، مثل: كنيسة بارهال وإشهان بالقرب من مدينة أرتفين، فضلًا عن السور الرائع لدير سوملا على الجرف الصخريّ، وتأثّرت خاصّة برؤية آيا صوفيا في طرابزون، يعود تاريخها للقرن الثالث عشر، ولا شكّ أنّ حرفيّين سلاجقة نقشوا أبوابها الحجريّة الفخمة، وتجوّلت في أضرحة كنائس أرمينيّة مهجورة في حقول آني، لم يعد هناك من يتلو داخلها آيات الكتاب المقدّس سوى أسراب الطيور، وأشرفت على سهول تقاطرت منها الحملات الصليبيّة على تركيا.

تقف بالطبع إلى جانب هذه المواقع المسيحيّة كلّها آثار عصور وأديان أخرى؛ ككنائس حيثيّة، ومعابد رومانيّة، ومعابد يهوديّة، ومساجد سلجوقيّة وعثمانيّة؛ فالثراء الدينيّ في تركيا يختلف عن أيّ بلد في العالم، وزرت أطلال معبد يهوديّ من العصر الرومانيّ في مدينة ساردیس، وقرأت الكتابات العبريّة على أرضيّاته الفسيفسائيّة، أمّا المساجد العثمانيّة الكبرى، تلك الآثار العظيمة التي أبدعها سِنان، فتقف شاهدًا على عظمة إسطنبول، وتعلِن جميعها أن الله فرد صمد، أمَّا المدينة التي تعكس شهوات الإنسان فلا أشعر فيها بعقيدتي أو بأي عقائد أخرى، بل إنّ ذاك الشعور الجليل لا أشعر به إلا في قلب (تركيّتي)، في تركيا السهل الأوسط؛ إذ ما زلت أسمع أتباع أديان كثيرة يجأرون بالتسبيح عبر مفترقات تلك السهول الذهبيّة؛ وجدت وسط هذا المزيج من الآثار الحقيقة العالميّة الكاملة

للأديان كلّها الممثّلة في أرض تركيا المقدّسة، وهكذا ترين يا سيّدة ماري، لم تساعدني تركيا على تعميق إرثي المسيحيّ فقط، بل فتحت أيضًا الباب لي لفهم أديان الآخرين؛ أنا واثقة أن معظم الأتراك لا يدركون الأثر النفسيّ لبلادهم على المسيحيين.

ما رأيته في تركيا تحت ذلك الخزف الياباني، وما قرأت من القرآن، وما ناقشت من موضوعات مع عدد كبير من الأتراك، ذلك كلّه أكّد لي ما كنت أتوقّعه من البداية: أنّ المسيحيّة والإسلام قائمان على المبادئ نفسها، المكرّرة في نصوصهما المقدّسة، والأرضيّة المشتركة للأديان الثلاثة الكبرى -المسيحيّة واليهوديّة والإسلام- واحدة تنصّ على حبّ الله والجار؛ الأمر سهل جدًّا؛ فيتلو كلّ مسلم سورة الفاتحة، تمجيدًا لله، عشرين مرّة على الأقل في صلواته اليوميّة، وهي تذكّر المسلمين دائمًا بقوّة الله، وأسمائه الحسنى، ورحمته في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وبقدرته على غفران ذنوبنا:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾ (سورة الفاتحة:١/١-٧).

هذا التكرار الشعائريّ يذكّر المسلم بضرورة التوجّه إلى الله بقلبه، وروحه، وعقله، وعواطفه، وإرادته، حينما أقرأ سورة الفاتحة أو أسمعها تُتلى في المساجد أثناء الصلاة، أسمع أصداء من الكتاب المقدّس، مثل كلمات في العهد القديم الرسميّ لسفر التثنية: «فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ»، وكلمات المسيح في إنجيل (متى ٢٢ وإنجيل مرقس ١٢)، وهو يتلو الوصايا العظمى: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ؛ هَذِهِ

هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى الْعُظْمَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ يَتَعَلَّقُ النَّامُوسُ كُلُّهُ وَالأَنْبِيَاءُ.»؛ هذا ما تعلّمته بصفتي مسيحيّة: أن أحبّ الله من كلّ قلبي وروحي وأن أكون مخلصة له؛ فبماذا يختلف هذا عمّا يشعر به المسلم حين يتلو الفاتحة؟

في هذا الجزء من إنجيل متّى، يعلن المسيح بوضوح أنّ ثاني أعظم الوصايا هي أن: «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ»، وفي الإسلام أيضًا هناك تعاليم لا تحصى تؤكّد على أهميّة حبّ الجار وتحضّ على الرحمة به، وهذه القيمة في دين الإسلام، كما هي في الدين المسيحيّ، فالمسلم يشكّل إبداء محبّته لمن حوله جزءًا مهمًا من الإيمان بالله، ودون إبداء ذلك الحبّ لمن حوله لن يكون هناك حبّ حقيقيّ لله؛ يقول نبيّ الاسلام (ﷺ) في أحد أحاديثه: "لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه"[1]، وفي تركيا يأخذون مسألة حبّ الجار بكلّ جديّة، ولا يقتصر الأمر على المسجد فقط، بل يشكّل أساس الحياة كلّها، إذ يؤمن الأتراك أنّ حبّنا لله لا يكون صادقًا دون بذل العطاء للآخرين بكرم وتضحية بما نحبّ، وقد تأخذ هذه النزعة الخيريّة شكل إحدى تلك اللفتات الطيّبة السهلة الغزيرة، تحدّثت عنها في رسالة سابقة؛ فتلك اللفتات الخفيّة غالبًا، المؤكّدة على قوّة الكرم التركيّ، هي بحقّ صلوات صغيرة، وهناك أيضًا صدقات شعائريّة أعظم من ذلك، مثل: الأضحية في عيد الأضحى، أو إعطاء الصدقات للجيران المحتاجين أو للمؤسّسات الخيريّة؛ فالأعمال الخيريّة أقوى روابط اللحمة الاجتماعيّة في تركيا، وهي إدراك تامّ لكيفيّة تطبيق الإسلام في الحياة، بل هي من أوضح تجلّيات القاعدة الإسلاميّة الذهبيّة الحاضّة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورغم اشتراك المسيحيّة والإسلام في القاعدة الذهبيّة نفسها، فإنّها تبرز أكثر في الحياة

(١) البخاري: الإيمان، ٦. مسلم: الإيمان، ١٧.

اليوميّة في تركيا، فلا يشكّ أحد أنّ خدمة الناس عبادة، وأنّ ضرب المثل والقدوة هي أقصر الطرق إلى الله.

أنا معجبة بهذا الجانب الاجتماعيّ للإسلام وبالأهميّة التي يوليها الأتراك لعمل الخير والتصدّق لصالح المجتمع؛ فالإسلام يعدّ الفرد نحلة عسّالة في خليّة النحل البشريّة، حاملًا فِكرًا يرمي إلى فعل الأصلح للمجتمع كلّه، ورغم أنّ الإسلام والمسيحيّة دينان مختلفتان اختلافًا كبيرًا ممارسة وتطبيقًا، فإنّ الأساس المشترك لتعاليمهما الرئيسة يتشابه تشابهًا لا مثيل له؛ فلماذا إذًا يشقّ علينا السير في طريق الإنسانيّة يدًا بيد لاستكشاف هذا التشابه بدلًا من محاولة التركيز على الاختلافات والاقتتال بسببها؟ هناك ربّ واحد فقط، ويجب علينا أن نحبّه وأن نحبّ من حولنا، سواءٌ كان ميثوديًّا من أوهايو أو سنيًّا من قونيا؛ فهذا الحبّ هو جوهر ديننا، مهما اختلفت طرائق ممارستهما، في صفوف الكنائس أو على سجاجيد الصلاة، بدقّات الأجراس أو بنداءات المؤذّنين.

في تركيا هناك مأخذان بالغا الخصوصيّة على تديّن المسلمين، أحدها يتماشى مع عالم التقنية المعاصرة والديمقراطيّة وحقوق المرأة، فضلًا عن آخر يحمل آثار أسلافهم الأتراك قبل دخول الأسلام؛ فالمرء يصادف كثيرًا من الممارسات المتعارضة مع الإسلام، مثل: ارتداء عين أو خرزة زرقاء لدرء الحسد، وقراءة الطالع، والتنجيم، وتصديق المشعوذين، وتفسير الأحلام، والتضحية بالديوك والدجاج في أماكن مقدّسة لضمان الحصول على زوج أو أطفال، وزيارة أشجار عملاقة لتأدية طقوس تجلب الحظّ، والعادة التي تحمل تناقضًا غريبًا؛ ألا وهي عدّ إبداء الإعجاب بجمال الأطفال شرًّا! لطالما ثار فضولي لدى رؤيتي قطع النسيج المربوطة في الأشجار والآجام للوفاء بالنذور، وإذا تأمّلت هذه الممارسات الشائعة الغريبة الشاذّة، فستجدينها لا تقلّ غرابة عن بعض الشعائر الأرثوذوكسيّة في طقوس مسيحيّة قائمة، مثل: احتساء النبيذ وتلوين البيض في عيد الفصح.

ثمة أشياء كثيرة حازت إعجابي واحترامي في الدين الإسلاميّ كما عرفته في تركيا، كما حدث معك يا سيّدة ماري حينما كتبت تلك الرسالة إلى القس كونتي؛ بادئ ذي بدء، أفترض أنّني مثلك، أحبّ سهولة الإسلام، وخلوّه من الطقوس والأيقونات السمجة والأبّهة والاحتفالات الشعائريّة، وأتفق معك تحديدًا بشأن الإلهام، تبعثه الصروح المعماريّة الرائعة، زُوّدت بالقباب الفسيحة المفردة الخالية من المقصورات، وحينما زرت الكنائس الصخريّة البيزنطيّة في وادي جوريم في كابادوكيا، وتأمّلت الأيقونات الغريبة الفخمة للقدّيسين، والثعابين، والقصص المرعبة المصوّرة على جدرانها بأسلوب يشبه أسلوب الكتب الفكاهيّة، بدا لي ذلك كلّه تصرّفًا صبيانيًّا جدًّا بعد أن سمعت ذلك النداء المهيب أمسِ يرفعه المؤذّن في المساجد السلجوقيّة الجرانيتيّة الرماديّة الصلبة في مدينة قيصري القريبة، وكم تأثّرت أيضًا بالوقوف أمام شجرة دلب عمرها خمس مئة عام في مدينة الموتى ببورصة، وبتأمّل ضريح السلطان مراد الثاني الصوفيّ المؤثّر ذي القبّة المفتوحة، ومن قبيل السهولة أيضًا أنّ النطق بالشهادة هو أوّل ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهي حوار شخصيّ يعكس الإيمان، وليس طقسًا مقدّسًا معقّدًا؛ فالنطق بالشهادة أهمّ صلاة لله، وبسهولة هذا الحوار وخصوصيّته أحد أكثر جوانب هذا الدين إثارة للإعجاب.

الأمر الآخر الذي يعجبني في الإسلام هو تسامحه مع الأديان الأخرى، وأنّ كثيرًا من الأنبياء، مثل: موسى، وعيسى، وإبراهيم، وداود، وسليمان، وآدم، ويونس، وإسحق، ونوح، ويعقوب وغيرهم مذكورون في القرآن؛ قرأت في القرآن: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (سورة النساء: ١٧١/٤)، ويعجبني كذلك الحسّ الأخلاقي الرفيع الذي يتحلّى به الأتراك، ويؤكّده التمييز بين الخطأ والصواب كما يعلّمهم القرآن الذي يرفض أشكال العنصريّة والإرهاب كلّها ويلعنها؛

يقول القرآن: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة: ٣٢/٦)، وتعجبني أيضًا الصفات المشتركة بين المسيحيّة والإسلام؛ فالمسجد كالكنيسة مكان لإقامة الشعائر، ومكان للأمن والسلام والالتجاء، والفكرة المسيحيّة الخاصّة بخدمة الآخرين، والقيام على توزيع نِعم الربّ، والتسليم برسالة الربّ ومشيئته، وغفران ذنوب الفرد والمجتمع، كلّها أمور مهمّة في الإسلام أيضًا.

رغم أنّني أرى التوجّه إلى المسجد خمس مرّات يوميًّا للصلاة من الصعوبة بمكان في حياتي اليوميّة الحافلة، فإنّني أستمتع بلحظة التأمّل أن أنغمس فيها حينما أسمع الأذان في شوارع المدن الكبيرة والقرى الصغيرة؛ في هذه اللحظة أتوقّف تمامًا لأستجمع أفكاري الخاصّة بيومي، وأبتهج؛ لأنّني على قيد الحياة في هذه اللحظة، وعندما أتوقّف فإنّني أشارك أيضًا في تطبيق النظام السلوكيّ الإلهاميّ الذي يعلنه الأذان؛ يقلّ النشاط في الشارع دقيقتين، ويتوقّف الناس عن فعل أيّ شيء، وتصمت الأحاديث، وتكفّ أبواق السيّارات عن النفير، ويتوقّف الباعة الجائلون عن الصياح، ويخفت صوت أجهزة المذياع، وتهدأ الأرصفة، وتتنزّل بركة خفيّة على الجوار وأهله، وأنا أيضًا أتوقّف وأصغي إلى جمال الأذان، وأستغرق وقتًا لأتلو صلاتي الخاصّة؛ إذ يذكّرني الأذان بواجبي نحو الآخرين، كما يفعل المسلمون؛ حينما أسمعه أفكّر في أخطاء ربّما ارتكبتها في ذلك اليوم في حقّ الآخرين؛ فيدفعني الأذان أن أسأل نفسي: «هل تفوّهت بأيّ كلمة قاسية، أو خطرت لي خواطر شريرة؟ ألم يكن بوسعي أن أكون أكثر لطفًا مع فلان؟» لديّ ثلاثة أصدقاء مصوّرين ناجحين في قونيا منحوني من وقتهم يومًا كاملًا لاصطحابي لرؤية المزارات، وفي نهاية اليوم زرنا قرية سيلا القريبة، فتوقّفوا خلال الزيارة؛ ليدخلوا مسجدًا لأداء صلاة العصر، وفي وقت لاحق، حينما كنّا نحتسي الشاي، سألتهم عمّا تعنيه الصلاة لهم، وعن سبب اهتمامهم

بأدائها وسط يومهم المزدحم، وعن كيفيّة نجاحهم في توفير الوقت اللازم لأدائها خلال يومهم، فشرحوا لي بمنتهى الصبر أنّ القضية لا تكمن في إيجاد الوقت اللازم لأدائها، وأنّ تلك الدقائق المعدودة تمنحهم شعورًا بالنشاط الجسمانيّ والنفسيّ دائمًا؛ فيعينهم على مواجهة تحدّيات يومهم الحافل، والتفت أحدهم، وهو فوزي شيمشك، وقال: «لو استطاع الناس كلّهم في العالم، لا المسلمون فقط أن يحظوا بلحظات السلام هذه كلّ يوم، فقد تقلّ نسبة المشكلات في العالم»، كان رأيه بسيطًا واضحًا جدًّا، وفي لحظة من أجواء الصفاء تحت شمس الأصيل، شاطرته تفاؤله.

الإسلام أحد الجسور التي يجب أن أجتازها بين تركيا وبلادي، وأعتقد أنّ دوري مهمّ بوصفي مترجمة داعمة للحوار بين الأديان، فإذا كنت أستطيع -وأنا المسيحيّة- أن أحدّث عائلتي وأصدقائي عن الإسلام؛ لأساعدهم على فهم جماله وتميّزه، فسأكون قد أسديت خدمة لهم جميعًا؛ أتمنّى أن أعزّز روحانيّة أبناء بلادي، ولو بقدر يسير، مثلما تعزّزت روحانيّتي، وتعمّقت من خلال استكشافي القيم المشتركة بيننا وبين الإسلام؛ ربّما يؤدي ذلك إلى نشر السلام؛ وهو الهدف الأسمى للأديان كلّها.

علّمتني تركيا وشعبها وأسلوب حياته وشكل إسلامه كثيرًا من الأمور؛ أدركت أنّ مواجهة التعدّد الدينيّ ومختلف الممارسات الدينيّة يمكنها أن تزيد المرء قوة، واكتشفت أنّ حبّ الطبيعة جزء مهمّ من أرواحنا، وأنّه يغرس البهجة في نفوسنا، ورأيت كيف تستطيع الأسرة أن تصبح مركزًا للمجتمع بأسره وللحبّ، وكيف تخلق الأسرة مِساحة مقدّسة آمنة بعيدًا عن صخب الحياة اليوميّة، وأدركت قوّة يستطيع الفرد أن يمنحها لمن حوله، وكيف تستطيع لمسة حبّ واحدة أن تضيء ساعات من الصفاء، واكتشفت كيف يستطيع الأشخاص أن يكونوا سفراء للخير، وكيف يمكن أن تتحوّل لفتاتهم الكريمة إلى وسيلة لجعل العالم مكانًا

أكثر هناءً، وتعلّمت من دروس الحبّ المستقاة من الروميّ والصوفيّة أنّ عوالم الإيمان الغامضة حقيقة واقعة يجدر تبجيلها؛ فتناولهم الصوفيّ للإيمان جعلني أرى أنّ بلوغ الروحانيّة يتأتّى بحبّ الناس كلّهم والأشياء كلّها، بهدف إضفاء الرقّة على الحياة، وتعلّمت منهم أنّ ما يخرج من القلب يدخل إلى القلب؛ هذه الدروس كلّها المتسلّلة إلى ديني وتقاليدي وآرائي، أقنعتني أنّ الحبّ بسهولة هو سلوك موجّه نحو خير الآخرين، وأنّ الربّ يتجلّى في الحياة والحبّ لكلّ واحد منّا، وفي أشكال جمال الطبيعة كلّها، وفي خوارق حياتنا اليوميّة، وأهمّ شيء عندي أنّني أصبحت أؤمن أنّ الربّ يمثّل قناعة أنّه لا بد أن يسود النور والجمال والخير؛ فالإيمان بالربّ هو التحلّي بالأمل.

لعلّ أعظم درس تعلّمته أنّ المستقبل لا يمكن مجابهته إلا بالأمل لا باليأس، وأنا أؤمن أنّ المسلمين قوم مسالمون، وأنّ الإسلام لا يسعى إلى تدمير من يخالفه؛ إذ كيف لدين يذكر المسيح في كتابه المقدّس بهذا التسامح كلّه أن يضمر السوء للمسيحيّة! سيَصِفُني المخالفون لي في الرأي بالسذاجة، لكنّني أومن بذلك، لأنّه يشكّل أمل حياتي؛ فيمكن أن تظلّ هذه القناعة موضوعًا لحوارات ودّيّة بين الأديان، ولتصريحات زعماء دينيّين، أو هيئات عالميّة متّحدة؛ فالعلاقة اليوم بين المجتمعات الدينيّة الإسلاميّة، والمسيحيّة، واليهوديّة، هي أهمّ عامل يسهم في إشاعة السلام في العالم؛ لأنّه بسهولة في حال انعدام السلام بين هذه المجتمعات، لن يعيش العالم في سلام؛ في هذا العالم الواسع المليء بالأسلحة الشريّرة الفتّاكة، لا يمكن استغلال الدين في لعبة القوّة بين الحكومات المتغطرسة أو بين المتعصبين الحمقى.

نحن نعيش في أمريكا على أرض لا مثيل لها في العالم؛ إذ يشترك اليهود، والمسيحيّون، والبوذيّون، والسيخ، والهندوس، والمسلمون، والملحدون، في الاحتفال بعيد الشكر، ويتمتّعون بحريّة العبادة،

ويجب على أمريكا أن تظهر للعالم أنّ التآلف والتعايش السلمي ممكن في الداخل ثمّ في الخارج، ويجب على تركيا أن تظهر للعالم إلى أيّ مدى يمكن أن يكون الإسلام دينًا مسالمًا جديرًا بالإعجاب والاتباع لا دينًا مشوَّهًا بالنوايا السيّئة؛ فمستقبل سكان الأرض كلّهم مسؤوليّتنا جميعًا ورهن أيدينا جميعًا، وكما قال المسيح: «طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ».

كانت كلّ رسالة من رسائلك يا سيّدة ماري صانعة سلام صغيرة، وأتمنّى أن يستمرّ قلمك وأقلام أخرى في إلهام روح الإخاء، وفي ختام رسالتي سأتركك مع كلمات لأبلغ صُنَّاع السلام، جلال الدين الروميّ؛ فالحكمة البالغة لهذا المتصوّف التركيّ تحوي جوهر الروحانيّة الذي ينبغي أن يرشِّد جهودنا جميعًا في هذا الاتجاه:

> «حاولت أن أعثر عليه فوق الصليب، لكنّه لم يكن هناك، فذهبت إلى معبد الهندوس وإلى الباغودا القديمة، لكنّني لم أعثر له على أثر، بحثت فوق الجبال وفي الأودية، لكنّني لم أتمكّن من العثور عليه لا في الأعالي ولا في الأعماق، ذهبت إلى الكعبة في مكّة، لكنّه لم يكن هناك أيضًا، سألت العلماء والفلاسفة، لكنّه كان أرفع وأسمى، وأعلى من فهمهم، ثمّ بحثت في قلبي، وهناك رأيته حيث كان مستقرًّا؛ ما كنت لأجده في أيّ مكان آخر».

صديقتكم
قدرية برانج

جامع السليمانيّة يملأ أفق إسطنبول

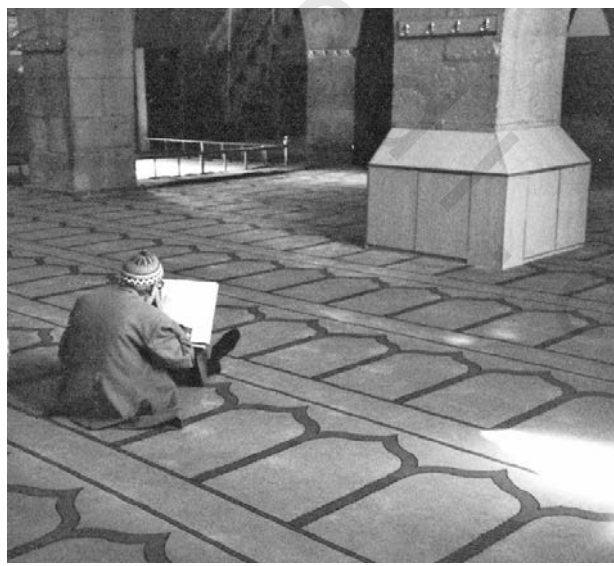

مسجد الخاتونيّة في قيصري

صفحة من نسخة مصحف يرجع إلى العصر السلجوقيّ ١٢٧٨م

عشّ لقالق، المسجد الأخضر، في إزنك

تجهيز لموائد حلويات عيد الفطر (عيد السكّر) في إسطنبول

obeikandl.com

زاوية أخي إفرين درويش في قيصري

أرارات: جبل نوح

obeikandl.com

باب يؤدّي إلى زاوية الشيخ تورَسَان

شرائط نذريّة مربوطة في موقع مجمع أصحاب الكهف، المبنيّ محل كنيسة بيزنطيّة

obeikandl.com

شرائط نذريّة على شجرة توت عمرها خمس مئة عام، زاوية حاجي بكتاش

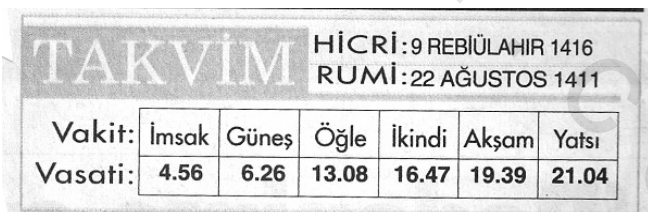

TAKVİM

HİCRİ: 9 REBİÜLAHIR 1416
RUMİ: 22 AĞUSTOS 1411

Vakit:	İmsak	Güneş	Öğle	İkindi	Akşam	Yatsı
Vasati:	4.56	6.26	13.08	16.47	19.39	21.04

أوقات الصلاة المعلن عنها في الصحف اليوميّة

تذكرة الدخول لمتحف مولانا جلال الدين الروميّ في قونيا

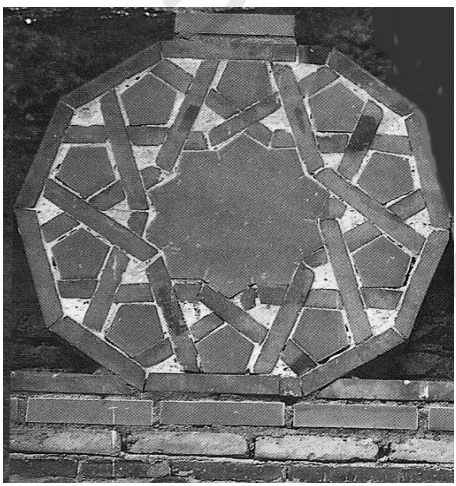

لوحة من البلاط على مئذنة الجامع الكبير في سيرت

جامع السليميّة في أدرنة عام ١٩٨٥م

obeikan.com